

القاهرة

القاهرة

شحاته عيسى إبراهيم



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة المصريات)

القاهرة

شحاته عيسى إبراهيم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

مقدمة

دراسة تاريخ القاهرة وتطورها ، ودراسة النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفنية بها ، هي في الواقع دراسة تاريخ مصر في العصور الاسلامية المختلفة ، منذ الفتح العربى ، حتى وقتنا الحالى . وهى دراسة لا يكفيها مثل هذا الكتاب بصفحاته القليلة الحاضرة ، وانما لابد لها من موسوعة يكون لها من الصفحات أضعاف هذا الكتاب ، يتوفر عليها بالدرس والبحث جمهرة من الباحثين

ولكن كان من الضرورى مع ذلك أن يكون للقاهرة كتاب ، تتركز فيه هذه الدراسة ، بقدر الاستطاعة ، لتغنى القارئ عن البحث في شتى المصادر . فاذا ما استهواه جانب منها ، وأغراه ذلك على الاستزادة ، رجع الى الأصول والمصادر الأصلية . وهذا هو أحد الأهداف التى قصدت اليها ولقد طرق هذا الباب فى اللغة العربية قبلى كاتبان فاضلان ، كتبوا عن القاهرة ، أحدهما البكباشى عبد الرحمن زكى ، والثانى المهندس فؤاد فرج . وقد كتب الأول كتابه منذ اثنين وعشرين عاما ، والثانى منذ هذا الوقت تقريبا . وبذا يكون قد تقادم العهد بعض الشئ على الكتابين ، ولم يدركا بطبيعة الحال التطور الحديث الذى طرأ على القاهرة . هذا فضلا عن أن لكل منهما منهجه الذى يختلف عن منهج الكتاب الحالى . ومع ذلك فقد كان لهما فضل سبق ، والفضل كما يقولون للمتقدم

وكتبت عن القاهرة فى اللغات الأجنبية كتب قليلة ، أو وردت عنها اشارات فى كتب الرحالة الافرنج ، غير أن هؤلاء الكتاب لم يكونوا دائما صادقى التعبير عن القاهرة ، فلأغلبهم أهداف خاصة من كتاباتهم ، ونواح معينة تستهويهم ، عندما يكتبون عن القاهرة ، أو عن مصر والمصريين ،

ليست صادقة تماما . هذا فضلا عن عدم احاطتهم بالمصادر الأصلية ، وجهل أكثرهم باللغة العربية وآدابها

غير أن للمستشرق الانجليزى ستانلى لينپول كتابا عن القاهرة هو The Story of Cairo كتبه عام ١٩٠٠ م ، أى أنه مضى على ظهوره قرابة ستين عاما ، وكان يعتبر من أحسن ما كتب عن القاهرة الى ذلك الحين . وقد نقل الى اللغة العربية عام ١٩٥٠ بعنوان (سيرة القاهرة) . كذلك ظهر عام ١٩٣٣ كتاب بالفرنسية عن القاهرة للأستاذ M.Clergé عاليج النواحي الاقتصادية للقاهرة بإفاضة واسهاب

لذلك كتبت كتاب القاهرة الحالى ، وعالجت فيه تطورها التاريخى حتى وقتنا الحاضر . ولهذا كان ضروريا أن أمهد للكلام عن القاهرة بذكر الخواضر التى سبقتها منذ الفتح العربى ، وهى الفسطاط والعسكر والقطائع ، ثم أتابع تطورها ونموها فى العهود اللاحقة بعد انشائها . وعالجت فى كل مرحلة من هذه المراحل النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية . وبهذا انقسم الكتاب الى تسعة أبواب هى :

١ - الفسطاط ، ٢ - العسكر ، ٣ - القطائع ، ٤ - القاهرة المعزية ، ٥ - القاهرة صلاح الدين ، ٦ - القاهرة المماليك ، ٧ - القاهرة فى عهد العثمانيين ، ٨ - القاهرة فى القرن التاسع عشر ، ٩ - القاهرة فى عهد الثورة

ثم اختتمت البحث بفصل عن القاهرة الغد ، أبنت فيه عن عيوب القاهرة والتخطيط المقترح لها . وقد قسمت كل باب الى فصول ، تعالج تطور المدينة ، وتشرح نواحيها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية كما ذكرت آنفا

وهدف آخر حفزنى الى تأليف هذا الكتاب ، ذلك هو رغبتي فى أن يتسم أفق النظر ودائرة التفكير عند شبابنا ، الذين يقتصرون عند درسه

تاريخ مصر الاسلامية على الأحداث التاريخية ، دون التوغل قليلا في درس النواحي الاقتصادية والثقافية والفنية ، أو الالمام بصفة خاصة بما خلفه الأقدمون من آثار وتحف . وقلّما يعنى هذا الشباب بزيارة للمتحف الاسلامى ، القائم بين ظهرانينا ، فى قلب القاهرة ، لاستجلاء مفاتن الفن الاسلامى ، وتتبع أدوار تقدمه ورقيه . ونادرا ما يكلف نفسه عناء البحث عن منشئ هذا المسجد أو ذاك ، والعصر الذى شيد فيه ، ومكانه من الطرز الاسلامية المختلفة ، والدور الذى أداه فى عصره والعصور التالية فى النواحي الدينية والثقافية والاجتماعية . كما انه لا يعنى كثيرا أو قليلا بالبحث فى أحياء القاهرة الحالية ، وأسواقها ، وشوارعها ، وحاراتها ، وكيف تطورت ، والعادات الحالية ، ومتى نشأت ، وكيف تسلت الى عصرنا الراهن

ومن الغريب أن يعنى بكثير من هذه الأمور السائحون والرحالة الذين يتوافدون على القاهرة ، ولا يعيرها التفاتا شابنا وكثير من المثقفين منا فلعل هذا الكتاب ، مع قصوره عن توضيح هذه النواحي كل الايضاح ، يغرى الشباب على البحث والقراءة والملاحظة وتقصى الحقائق ، والكشف عن آثار السلف الصالح ، واظهار جهود العاملين ، من آبائنا الأقدمين ، فى شتى نواحي الحياة

وفضلا عن المتعة التى أرجو أن يشعر بها الشباب حينئذ ، فلا مشاحة فى أن هذه هى سبيل المواطن المستنير ، الذى يجب أن يلم بكل ما يتصل ببلاده ، ويعرف لها قدرها ومكانها فى نشر الحضارة والمدنية قديما ، بين أمم العالم ، عندما لم تكن حضارة سوى الحضارة الاسلامية ، بينما كانت أوروبا تتخبط فى ظلمات الجهل ، وتضرب فى يداء الهمجية

ولست أطمع فى أن تصادف جميع فصول هذا الكتاب قبولا لدى جميع القراء ، ولكنى أعتقد أن ما من قارئ الا وسيجد ناحية فيه تستهويه ،

ومع ذلك فالمقدمات التاريخية ، التى يتقدم بها المؤلف لكل موضوع ، يتألف منها تاريخ مركز لمصر ، منذ الفتح العربى حتى الوقت الحاضر ، يهم القارئ المتعجل . كذلك تطور القاهرة فى عصورها المختلفة ، وتتبع الأحياء والشوارع الجديدة . وما تخلل ذلك من معلومات طريفة ، كلها نواح يحتاج الى معرفتها والالام بها سكان القاهرة بصفة خاصة ، والمواطنون أجمعون بصفة عامة .

وأخيرا ، لقد شجع كثير من الزملاء المؤلف على المضى فى مجهوده المتواضع الحاضر ، الشاق فى نفس الوقت . ولولا هذا التشجيع ، لما قدر له الظهور الى عالم الوجود ، والوصول الى أيدي القراء ، لكثرة الأعباء الملقاة على عاتقه ، التى تتطلبها وظيفته ، وعمله فى التفتيش ، متقلا عاما بعد آخر ، من اقليم الى اقليم ، ومن بلد الى بلد .

ويرى المؤلف لزاما عليه أن يقر بفضل هؤلاء الزملاء ، والسادة العلماء ، الذين تقل عنهم ، واستقى من معينهم ، وأفاد من علمهم ، وترى أسماءهم مسطورة فى ثبت المصادر المسجلة فى نهاية الكتاب وفى حواشيه ، وهو يرجو للأحياء منهم طول العمر ، وموفور القوة ، ليتابعوا جهودهم فى أداء رسالتهم ، نحو العلم والمعرفة ، وللذين قضوا ، رحمة من الله ورضوانا .

غير أنى أود أن أخص بالشكر وعرفان الجميل السيد الأستاذ حسن عبد الوهاب ، كبير مفتشى الآثار الاسلامية ، لبذله كثيرا من العون لى ، طواعية وعن طيب خاطر ، وتفضله بمراجعة كثير من فصول هذا الكتاب ، وامدادى بملاحظاته الثمينة ، وبكثير من الصور من مجموعته القيمة الحافلة ، والزميل الدكتور عبد الرحمن زكى الذى تفضل بالاطلاع على أصول الكتاب وكانت له ملاحظات قيمة أفدت منها كثيرا ، والزميل الأستاذ عبد العزيز عبد الحق المدير المساعد بإدارة الثقافة لتطوعه لقراءة الكتاب ، قراءة أخيرة ، وأفادتني من علمه الغزير ورأيه السديد .

كما أشكر للسيد الأستاذ صادق فرج فريج المدرس بمدرسة القرية
الاعدادية لتفضله برسم بعض خرائط الكتاب ، والأستاذ محمد ابراهيم
سيد أحمد المدرس الأول بمدارس المعلمين العامة لتفضله بامدادى ببعض
الصور التى وردت فى الكتاب ، ومعاونته معاونة مشكورة فى عمل الكشف
المسطور فى نهاية الكتاب

والله أرجو ، واليه ابتهل أن يكلاً الكنانة برعايته ، والجمهورية العربية
المتحدة بعين عنايته ، وأن يوفق القائمين على أمرها من نصر الى نصر ومن
خير الى خير ، فيعظم شأنها ، وتثبت دعائمها ، ويمتد ظلها ويعلو فى السماء
غرسها ، ويرتفع رأسها عالياً بين أمم الأرض ، انه سميع مجيب

شحاته عيسى ابراهيم

تمهيد

نشأة القاهرة وتطورها

تتألف القاهرة الحالية من أربع مدن قديمة ، كانت كل واحدة منها عاصمة حقبة من الزمان ، وتعاقت في الظهور ، الواحدة تلو الأخرى ، وتمثل كل منها طورا في حياة العهد الاسلامي بمصر ، والنظم السياسية ، والحياة الاجتماعية والاقتصادية بها . هذه المدن هي على الترتيب : الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع ، والقاهرة المعزية . والمشاهد أنها جميعا تقع فيما بين شاطئ النيل الشرقي وتلال المقطم . وكان طبيعيا أن تلى الواحدة الأخرى ناحية الشمال ، أو بعبارة أخرى أن يكون نمو القاهرة وامتدادها من الجنوب الى الشمال ، ما دامت تلال المقطم تقف حائلا دون نموها ناحية الشرق ، والنيل من ناحية الغرب . هذا اذا استثنينا الأرض التي كان النيل يطرحها على شاطئه الشرقي ، بعد أن يتحول ناحية الغرب ، اذ المعروف أن النيل كان يحف بجدران جامع عمرو وقت انشائه ، ولكنه ابتعد عنه اليوم مسافة تزيد على خمسمائة متر

فالفسطاط أول حاضرة لمصر الاسلامية ، وأقدم الحواضر الاسلامية بمصر جميعا . أنشأها عمرو بن العاص عقب فتحه لمصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) . وظلت مركز السيادة طوال عصر الخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية . فلما أفل نجم الأمويين ، ودالت دولتهم ، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس ، أنشأ أبو عون عبد الملك بن يزيد ، والى مصر من قبل الخليفة أبي العباس عبدالله السفاح ، أول الخلفاء العباسيين مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ (٧٥١م) واتخذها قسبة لولايته

ولما آل حكم مصر الى الأمير أحمد بن طولون ، أنشأ له عاصمة جديدة

سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) ، هى مدينة القطائع ، وظلت كذلك طوال عصر
الطولونيين والاخشيديين

فلما غزا الفاطميون مصر ، كان أول ما قام به جوهر الصقلى ، قائد
المعز لدين الله الفاطمى ، بعد أن امتلك زمام مصر ، وأخضعها لنفوذ
الفاطميين ، أن أنشأ عاصمة جديدة سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . تلك هى
القاهرة المعزية ، التى انتقلت اليها حاضرة ملك الفاطميين ، ومركز سيادتهم
من شمالى افريقية . وانتشر فى الحافقين صيتها ، وذاعت شهرتها ، حتى
فاقت بغداد وقرطبة ، وصارت فى وقت من الأوقات عاصمة العالم الاسلامى
بأسره ، ومركز تلاقى شعوبه ، ومبعث النشاط والثقافة والعلوم الاسلامية
فلما قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية ، وأنشأ دولته
لأيوبية ، شرع يجمع العواصم الأربع سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) فى صعيد
واحد ، ليتخذ منها عاصمة موحدة ، تتفق وجلال امبراطوريته ، وعظمة
ملكه . ولهذا الغرض ، ولكى تكون قادرة على رد هجوم الأعداء ،
والصمود أمام غارات المغيرين ، أخذ يحيطها بسور عظيم . ولكنه توفى
قبل اتمامه ، فأتمه خلفاؤه من بعده . ويمتد من أثر النبى ، جنوبى الفسطاط
وينتهى عند قلعة المقس (١)

ظلت القاهرة منذ عهد الفاطميين حتى الوقت الحاضر عاصمة البلاد ،
وحاضرة الملك ، ومركز السيادة فيها ، ولم يقتصر تخطيطها على الحدود
التى حددت بها وقت أن أنشأها الفاطميون ، بل ظلت تمتد شمالا وغربا
مسافات طويلة ، ولم يقف النيل عقبة فى سبيل امتدادها غربا ، بل انها
تزداد مساحة ، عاما بعد عام ، ويتوالى زحفها باستمرار ، حتى تلاقت
بحدود مديرتى الجزيرة والقليلية ، وذلك بفضل ما أنشئ على النيل من

(١) يحدد مكانها المرحوم العلامة محمد (بك) رمزي بعماروى الاوقاف وراتب (باشا)
المجاورين لجامع أولاد عنان ، من الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد - حاليا ميدان
ومسيس - (حاشية رقم ٤ ص ٣٩ ج ٤ من كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى)

قناطر (كبارى) ربطت بين شاطئى النيل ، وجعلت امتداد القاهرة ناحية الغرب أمرا ميسورا وضروريا ، لمقاولة الزيادة المطردة فى عدد السكان هذه نظرة عابرة ، تصور تاريخ القاهرة ، وأدوار تطورها ، والآن تتناول ما أجملنا بالشرح والتفصيل

الباب الأول

الفسطاط

- ١ -

لما أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) (١) ، وأجلى الروم عن الاسكندرية ، آخر معقل لهم بمصر ، وانتشع كل أمل لهم (٢) في مزاحمة العرب على امتلاكها ، عندئذ انصرف القائد العربى الى تنظيم البلاد تنظيما يتفق ومقتضيات العهد الجديد ، الذى تستقبله البلاد ، ألا وهو العهد الاسلامى المبارك . فكان فى مقدمة ما عنى به من الأمور تخير مكان يربط فيه جيشه ، وليكون مقرا لحكم البلاد ، بعد أن نهى الخليفة عمر بن الخطاب عن المقام بالاسكندرية ، حاضرة الروم فى مصر (٣)

اختيار موقع الفسطاط :

والواقع أن الاسكندرية وان اتفقت مع حكم الروم لمصر ، فلم تكن لتتفق بحال من الأحوال مع حكم العرب : فوقوعها فى أقصى شمال مصر ، جعلها أقرب الى روما أو بيزنطة (القسطنطينية) من أى بلد مصرى آخر . ولكنها أبعد من أى بلد من البلاد المصرية ، بالنسبة الى المدينة المنورة ، قصبة الدولة العربية ، التى صارت مصر لها تبعا . يضاف الى ذلك أنها فى موضع يشق على الجنود العربية أن تشخص منه الى أطراف القطر ، اذا ما دعا الى ذلك داع سريع . كذلك الأمر بالنسبة للوالى ، فانه يصعب

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، تعريب الاستاذ محمد فريد ابى حديد ، ص ٢٨٩
(٢) الواقع أن الروم لما تبدد أملهم تماما فى استعادة مصر ، حاولوا ذلك فى عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى موقعة ذات الصواري التى حدثت بالقرب من الساحل الجنوبى لاسيا الصغرى ، والتمزمتوا فيها بالهزيمة سنة ٣٤ هـ (٦٥٥ م)
(٣) كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص ، وهو نازل بمدائن كسرى ، والى عامله بالبصرة ، والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : « ألا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن اركب اليكم واصلت حتى اقدم عليكم قدمت » ، فتحول سعد من مدائن كسرى الى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل بالبصرة ، وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط - (القرى : الخطط ، الجزء الثانى ص ٧٦)

عليه أن يشمل البلاد جميعها بعين ساهرة ، من مكان قصى كالاسكندرية
جال عمرو ببصره في أنحاء البلاد ، فوقع اختياره على السهل الذي يلي
ببليون الحصن الرومانى الشهير ، من ناحية الشمال ، والذي يحده جبل
المقطم من شرقيه ، ويقع النيل فى غربيه ، وهو الذى كان يعسكر فيه
بجنوده ، ابّان فتح الحصن . وقد كانت تقوم تجاه هذا الموضع ، فى
الضفة المقابلة للنيل ، مدينة منف القديمة ، فصار النيل يربط العاصمة
القديمة بالعاصمة الحديثة ، وان فرقت بينهما القرون والأجيال

وقد أطلق على ذلك المكان اسم الفسطاط ، وهو الذى صار نواة
العاصمة الجديدة . وقبل أن نمضى فى تحديد موضع الفسطاط ، ووصف
خططها ودورها ، والحياة بها ، يجدر بنا أن نعرض لهذه التسمية ومنشأها ،
وما أحاط بها من آراء

تسمية الفسطاط :

يروى المؤرخون العرب فى سبب تسمية الفسطاط بهذا الاسم قصة
ملخصها أن عَمْرًا لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية ، أمر بنزع فسطاطه
— أعنى خيمته — فاذا فيه يمامة قد فرخت . فقال عمرو : « لقد تحرّم
منا بمجتحرّم » فأمر به فأقِرَّ كما هو ، وأوصى صاحب القصر به . فلما
قتل المسلمون من الاسكندرية ، قالوا : « أين نزل؟ » قالوا : « الفسطاط »
يعنون فسطاط عمرو ، الذى خلفه بمصر ، مضروباً لأجل اليمامة ، فغلب
عليه ذلك (١)

ولكن مؤرخى الفرنجة ، ومن نحا نحوهم ، ينكرون هذه القصة ،
ويرون أنها من نسج الخيال، ويشكون فى تأويل كلمة الفسطاط بالخيمة (٢).
ومبعث ذلك عندهم انهم يرتابون فى أن العرب استخدموا الخيام فى حروبهم
فى ذلك الوقت (٣) ويرجعون كلمة الفسطاط الى اللفظ اليونانى (فسطاطم)

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ج. ١ ص ٦٤ . والخطط للمقريزى ، ج ٢ ص ٧٥

(٢) بتار : فتح العرب لمصر ، تعريب الاستاذ محمد فريد أبى حديد ص ٢٩٤

(٣) المصدر السابق : هامش ٢ ص ٢٩٥

يقيم فيها في أثناء حصار العرب لحصن بابلون ، وبذلك يسقط اعتراض مؤرخي الفرنجة على قصة اليمامة ، وهي لاشك صحيحة ، ولا يضيرها أن كلمة فسطاط تعنى أيضا « مجتمع الناس » أو « المدينة الحصينة » وأن العرب سمعوا هذه المعاني عند فتحهم الشام ، أو عند حصارهم لحصن بابلون ، وأن بعض الجروف في كلمة Fossatum تتفق وحروف كلمة فسطاط ، فليس ذلك يمنع من أن تكون قصة اليمامة صحيحة

- ٢ -

والآن نمضى الى تحديد موقع العاصمة الجديدة ، وذكر كلمة عن خططها ، ومبانيها ، واتساع رقعتها ، وذيوع شأنها . وليس من شك في أنه من الصعوبة بمكان أن يحاول المرء رسم حدود دقيقة لمدينة انقضى على انشائها نيف وثلاثمائة وألف سنة مثل مدينة الفسطاط لسبيين رئيسيين :

أولا : ان هذه المدينة لم تظل على حالها الأول حين خططت في عهد عمرو بن العاص ، فلم يكن عمرو يرغب منها سوى أن تكون مقرا لعسكره ، ومقاما لقواده وأعوانه . ولم يدر أنه يضع أساس عاصمة جديدة للبلاد ، ما لبثت أن صارت مقر الحكومة ، ومبعث النشاط الاقتصادي في القطر كله ، ومركزا هاما من مراكز الحياة العلمية والفنية في العالم الاسلامي بأسره . فأخذ هذا المعسكر بطبيعة موقعه الجغرافي يمتد شمالا ، اذ كان الجبل يحول دون امتداده شرقا ، كما يحول النيل كذلك دون امتداده غربا .

ثانيا : اندثار كثير من المعالم التي يمكن الاستدلال بها على تحديد موقعها . فالروايات التاريخية التي تحدد موقع مدينة الفسطاط ، وفي مقدمتها رواية المقرئى ، انما تحدد موقعها بعد انشائها بقرون عدة ، تزيد على ستة قرون ، وبعد أن وصلت الى أوج عزها ، ثم توالى عليها صروف الزمان ونوائبه . ومع بعد الشقة بين عصر المقرئى والعصر الذى بنيت فيه المدينة ، فقد كانت روايته في تحديد موقع الفسطاط وما زالت أساسا

لجميع من حاولوا الكشف عن آثارها ، وفي مقدمة هؤلاء المرحوم على بهجت سنة ١٩١٤ م (١)

ويقول المقرئى : « ان مدينة مصر محدودة بحدود أربعة ، فحدها الشرقى اليوم — أى سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) — من قلعة الجبل ، وأنت آخذ الى باب القرافة ، فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر الى كوم الجارح ، وتمر من كوم الجارح وتجعل كيما من مصر كلها عن يمينك حتى تنتهى الى الرصد ، حيث أول بركة الحبش (٢) تحت الرصد ، حيث انتهى الحد الشرقى ، فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التى يسميها أهل مصر الجهة القبلىة . وحدها البحرى من قناطر السباع حيث ابتداء الحد الغربى الى قلعة الجبل ، حيث ابتداء الحد الشرقى ، فهذا عرض مصر من جهة الشمال ، التى تعرف بمصر بالجهة البحرىة . وما بين هذه الجهات الأربع يطلق عليه الآن مصر »

وقد انتهى المرحوم على (بك) بهجت (٣) بعد تطبيقه رواية المقرئى السابقة على بقايا الفسطاط ، ومقارنة المباني التى وجدت فى وسطها بتلك التى وجدت فى أطرافها ، الى تحديد الفسطاط على النحو الآتى :

الحد الشمالى : ويقع بين كوم الجارح وقنطرة السد
الحد القبلى : ويمتد ما بين الرصد (٤) — وكان قائما على ذروة الشرف
المطل على بركة الحبش — وشاطئ النيل غربا

الحد الغربى : الشاطئ الأيمن للنيل ، وهذا الحد كان يتنقل على تتابع
السنين مع تنقل الجسر نحو الغرب

الحد الشرقى : وكان يمتد فيما وراء الحد الذى عينه المقرئى ، أى الى
حدود القرافة الحالية ، ويسير جنوبا حتى الرصد

(١) انظر كتاب حفائر الفسطاط للمرحوم على (بك) بهجت
(٢) موضع هذه البركة اليوم منطقة الاراضى الزراعىة التابعة لزمام قرية دير الطين وزمام قرية البساتين
(٣) انظر « حفائر الفسطاط » ص ٢٥ — ٢٧
(٤) الرصد مكان رصد الكواكب والنجوم على المرتفع المطل على بركة الحبش الذى امر بتشبيده الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى

« ولم تزل الفسطاط في نقص وخراب الى أيامنا هذه » أى حتى القرن الخامس عشر الميلادى

تخطيط الفسطاط (١) :

وبعد أن وضع عمرو بن العاص أساس جامعہ سنة ٢١ هـ (٦٤١-٦٤٢ م) ، وكل الى أربعة من قواده تخطيط الأرض حول الجامع الى خطط ، وانزال كل قبيلة بخطتها ، وهم (٢) : معاوية بن حديج التجيبى ، وشريك بن سَمَى الغطيفى ، وعمرو بن قحزم الخولانى ، وحيويل بن ناشرة المعافرى . فأخذت كل قبيلة فى بناء مساكنها ، وكانت بسيطة فى عمارتها وتخطيطها ، بتكون كل منها من طابق واحد . وكان لكل قبيلة مسجدھا الذى تقام فيه الصلوات الخمس . أما جامع عمرو ، فهو المسجد الجامع الذى تقام فيه الصلوات الجامعة ، وهى صلاة الجمعة ، وصلاة العيدين . كما كان يجتمع فيه الوالى بعماله وقواده للنظر فى شئون البلاد ، ويفصل فى المظالم التى ترفع اليه ، ويخطب الناس كلما اقتضى الأمر . وكان يجلس فيه القضاة للقضاء ، بعد أن فصلت وظيفة القضاء عن الوالى . ويحضر فيه الناس دروسا فى الدين والحديث والفقه عن أعلام المسلمين والمتفقيين فى الدين ، لتبصير الناس بأمر دينهم ودنياهم

ومن تلك الخطط خطة مهرة ، وخطة تجيب ، وخطط لحم وجندام وخطة بنى بحر وهم قوم من الأزد ، وخطة ثقيف وخطة غافق وخطة حضرموت ، وخطة يحصب ، وخطة المعافر ، وخطة سبأ ، وخطة بنى وائل وخطة القَبْض ، وخطة مَذْحِج ، وخطة بنى غَطِيف وبنى وعُلال وخطة بَلِى ، وخطة خَوْلان ، وخطة الصدف ، وخطة غَنْب ، وخطة سلامان ، وخطة

(١) تقول بعض المصادر ، ومن بينها ابن تفرى بردى ، أن عمرا وضع أساس الفسطاط . أولا ثم أخذ فى بناء الجامع بعد ذلك . وتقول مصادر أخرى عكس هذا . ولكن مادام لا يوجد ما يرجح رواية على أخرى ، فالمعقول أن يكون أول ما بدأ به عمرو هو بناء الجامع ، إذ هو أول ما يعنى به المسلمون : لاقامة الصلاة ، واجتماع رؤساء الجيش وامرائه ، لتدبير شئون البلاد ، وإدارة أمورها

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٦٥

السِّلَف ، وخطه رَمَعَيْن ، وخطه الكَلَاع ، وخطه نافع ، وخطه مرء ، وخطط الحمراء والفارسيين (١) وأغلب أصحاب تلك الخطوط من عرب الجنوب أو اليمنية . أما عرب الشمال أو قيس فكانوا أقلية ضئيلة . وإنما تكاثروا في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) ، حيث انتقلت إلى مصر بطون كثيرة منها . ولكنهم لم ينزلوا الفسطاط وإنما نزلوا الحوف الشرقي

وقد عرف من بين تلك الخطوط خطة أهل الراية ، وهم جماعة من قریش والأَنْصار وخزاعة ، وتمتد من جامع عمرو جنوباً حتى قصر الشمع ، وخطه مهرة ، وتقع إلى الجنوب الشرقي من خطة أهل الراية ، كما كان لها خطة أخرى على جبل يشكر ، وخطه تجيب ، وتقع إلى الجنوب الشرقي من مهرة ، وخطه لحم وهي ثلاث ، أهمها تلك التي تقع في الشمال الشرقي من جامع عمرو . وخطه اللفيف ، وكانت تلاصق خطة أهل الراية . وخطه وعلان في جنوبى قصر الشمع . وقد أفرد لغير العرب ، وهم الذين لقبوا بالحمراء خطط ثلاث ، تمتد من جامع عمرو حتى جبل يشكر ، الذى سكنته إحدى هذه القبائل ، ولذا سُمى باسمها ، وهذه الخطوط الثلاث هى الحمراء العليا والحمراء الوسطى وتقعان داخل حدود الفسطاط ، والحمراء الدنيا أو التصوى ، وتقع خارج حدود الفسطاط الأصلية ، من ناحية الشمال ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى أن لفظ خُط ، الذى ظل مستعملاً إلى عهد قريب ، هو نفس لفظ خِطة ، الذى استعمل وقت الفتح وما تلاه ، ولكن بعد ضم أوله وحذف التاء من آخره . فقد كان يقال خُط المغربلين ، وخط السيدة نفيسة ، وخط الحسينية وهكذا

تراجع النيل :

ولا يتبادر إلى الذهن أن شاطئ النيل الحالى من جهة الشرق هو نفسه الذى كان موجوداً وقت إنشاء مدينة الفسطاط . فالشاطئ الحالى يبعد

(١) خطط المقرئى ، ج ٢ ص ٧٦ - ٨٠

عن الشاطئ القديم بنحو خمسمائة متر ، انتقلها الشاطئ القديم نحو الغرب (١) . وهذه ظاهرة جغرافية تمتاز بها الأنهار في مجاريها الدنيا ، اذ يضعف التيار هنا ، فينحدر في الجانب الغربى ، ويبقى في الجانب الشرقى ، بما يجلبه معه من رواسب وطمى ، وبهذا الشكل تزداد مساحة الأرض فيما جاور الساحل الشرقى ، بينما يتسع المجرى في الساحل الغربى . وهذا ما حدث بالفعل للنيل في المنطقة الممتدة حاليا من ساحل أثر النبى بمصر القديمة حتى روض الفرج . فقد روت المصادر التاريخية أن حصن بابليون وقت الفتح ، وجامع عمرو ، كانا يشرفان على النيل . كذلك قرية أم دنين ، التى كانت تقع في مكان جامع أولاد عنان الحالى ، كانت هى الأخرى تشرف على النيل . وأن المقوقس ، عندما شرع يفاوض عمرو بن العاص في شروط التسليم ، خرج من باب الحصن الغربى ، الذى كان يعرف بباب الحديد - وكان مشرفا على النيل - وركب زورقا عبر به النيل الى جزيرة الروضة على الضفة الغربية . وهذا الباب الذى يوجد اليوم في كنيسة المعلقة ، يبعد عن النيل حاليا بنحو خمسمائة متر ، كما يبعد جامع عمرو عن النيل بنفس المسافة

مدينة مصر :

ومن هنا يظهر أن المنطقة ما بين جامع عمرو وسيالة الروضة قد استحدثت منذ الفتح العربى لمصر (٢) . وأن الفسطاط الأصلية تقع شرقى خط يمتد من جامع عمرو الى قصر الشمع ، الذى تعرف بقاياها اليوم بالكنيسة المعلقة ، وقد شمل هذا الاسم أيضا المنطقة المستجدة ، الواقعة غربى هذا

(١) انظر مقال الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة للمرحوم الاستاذ محمد رمزي بمجلة العلوم ، السنة التاسعة ، المجلد الخامس ص ٦٤٨

(٢) وقد استمر تحول النيل نحو الغرب فيما جاور هذه المنطقة منذ سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) حتى قدوم الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ م ، وتختلف عن ذلك أراض جديدة أضيفت الى القاهرة ، من بينها خطط اللوق ، وبولاك ، والمنطقة الواقعة حول مستشفى قصر العينى ، ومدرسة الطب ، والسيدة زينب ، وخطة محطة مصر (ميدان رمسيس) ، وانما يصعب تحديد مراحل هذا التحول تحديدا زمنيا دقيقا ، كما يصعب تحديد وقت ظهور كل من هذه الخطط

الخط حتى سيالة الروضة . وقد ظلت هذه التسمية حتى آخر القرن السابع الهجرى . (الثالث عشر الميلادى) . فلما استولى الخراب على القسم الشرقى ، اختفى اسم القسطنطين ، وحل محله اسم مدينة مصر ، التى تعرف اليوم باسم مصر القديمة (١)

جامع عمرو :

و جامع عمرو ، ويسمى تاج الجوامع ، أو المسجد العتيق ، هو أول مسجد أنشئ فى مصر ، كانت مساحته وقت انشائه (٥٠ × ٣٠ ذراعا) أو (٢٩ × ١٧ مترا) . وأرضه يغطيها الحصى ، وكان سقفه المنخفض ، المصنوع من الجريد ، محمولا على دعائم من جذوع النخل . ولم يكن له صحن أو مئذنة أو محراب . وقد شيد له عمرو منبرا . ولكن الخليفة عمر أمره بإزالته ، قائلا له : « أما بحسبك أن تقوم قائما ، والمسلمون جلوس عند عقيبك؟ » . وكانت له ستة أبواب ، بابان فى كل جانب ، ماعدا جانب القبلة . وبلغ الضيق بالمصلين أنهم كانوا يصطفون وقت الصلاة خارج المسجد . وقد كان يحيط به من الخارج طريق عرضه سبعة أذرع فى بعض الجهات فأنت ترى من وصف جامع عمرو انه كان بدائيا فى تصميمه وبنائه . وإن البناء الحالى يختلف عن الجامع الأصيل اختلافا تاما . فقد هدم عدة مرات ، وفى كل مرة يعاد بناؤه ، ويزاد فى مساحته ، ويعدل تخطيطه . ويضيق المقام هنا عن تتبع المراحل التى مر بها حتى وصل الى شكله الحاضر . ولكنه مما لا ريب فيه أن من أهم التعديلات تلك التى أدخلت عليه فى عهد « قسرة بن شريك » والى مصر من قبل الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك سنة ٩٣ هـ (٧١٠ م) ، اذ هدمه وزاد فى مساحته ، وأنشأ فيه محرابا مجوفا « مقعرا » . ومنبرا خشبيا ، ومقصورة . وصار للجامع أربعة أبواب ، فى كل من الواجهتين الشرقية والغربية ، وثلاثة فى الواجهة البحرية . ولم يصل المسجد الى مساحته الحالية (١١٢ × ٥٠ ر ١٢٠ مترا)

(١) المقال سالف الذكر للمرحوم الاستاذ محمد رمزي

الا في سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، في عهد عبد الله بن طاهر ، والى مصر من قِبَل الخليفة العباسي المأمون ، فقد زاد في مساحته الى الضَّعْف ، وكانت هذه الزيادة خاتمة الزيادات

وقد توالى على هذا المسجد عهود من الرعاية ، وأخرى من الإهمال : ففي عهد كان مكانا لاجتماع الباعة ، ولعب الأطفال والمهرجين . وفي آخر ازيّن ، واستكمل زخرفه ، وحفل بالمصلين وطلاب العلم ، مما استحق معه أن يسمى بتاج الجوامع

وقد زار ناصر خسرو ، الرحالة الفارسي مصر من سنة ٤٣٧ الى سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٥ - ١٠٤٧ م) في عصر الخليفة المستنصر الفاطمي ، وشاهد جامع عمرو . ومما ذكره في وصفه « أنه قائم على أربعمئة عمود من الرخام ، والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض التى كتبت عليها آيات من القرآن بخط جميل . وتحيط بالمسجد الأسواق من جهاته الأربع ، وعليها تفتح أبوابه » (١) وقال أيضا : « وكان يوقد في ليالى المواسم أكثر من سبعمئة قنديل ، ويفرش بعشر طبقات من الحصر الملون ، بعضها فوق بعض . ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل . وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة . ولا يقل من فيه في أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء ، والكتاب الذين يحرون الصكوك والعقود وغيرها » (٢)

وفي سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ - ١١٦٩ م) لحق بجامع عمرو من جراء حريق الفسطاط أضرار بالغة . فلما آل ملك مصر الى صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) رَمَّم الجامع ، وجدد بعض أجزائه ، وأعاد بياضه وفي سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ - ١٣٠٣ م) حدث زلزال أضر بكثير من مباني القاهرة ، فتشقت جدران جامع عمرو ، وانفصلت أعمدته بعضها عن بعض .

(١) و (٢) سفرنامه لناصر خسرو ملوى ، تعريب الدكتور يحيى الخشاب ص ٥٩

فعهد الناصر محمد بن قلاوون الى الأمير سلا ر ، نائب السلطنة فى تعمير الجامع تعميرا شاملا . ومن آثار هذه العمارة الشباييك الجصية بالواجهة الغربية ، والمحراب الجصى الخارجى فى هذه الواجهة ، الحافل بالزخارف والكتابات النسخية

وفى سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) أمر مراد بك ، والى مصر باصلاح المسجد، اذ كانت أعمدته قد مالت وأواوينه قد سقطت. غير أنه غير اتجاه عقود الأروقة ، فجعلها عمودية على جدار القبلة ، وبذلك سدت الشباييك . والمنارتان الباقيتان الى اليوم هما من آثار عمارته ، التى تمت فى أواخر شهر رمضان من هذه السنة ، فصلى فيه آخر جمعة من ذلك الشهر ، فدرج ولاية مصر منذ ذلك التاريخ ، الى عهد قريب ، على صلاة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان فى هذا الجامع . وقد كان هذا التقليد متبعا أيضا فى عهد الفاطميين .

دار عمرو الكبرى وداره الصغرى :

وكان عمرو قد بنى لنفسه دارا شرقى المسجد عرفت باسم دار عمرو الكبرى ، وبنى عبد الله بن عمرو لنفسه دارا أخرى ، تلاصق دار أبيه من جهة الشمال ، وقد عرفت بدار عمرو الصغرى . وفى غربى هذه الدار بنى الزبير بن العوام لنفسه دارا ولكنها هدمت جميعا ودخلت فى مساحة المسجد عندما ضاعف عبد الله بن طاهر من مساحته

— ٣ —

ظلت القسطا ط عاصمة للديار المصرية منذ نشأتها سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) حتى سقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م). وقد نشأت القسطا ط فى أول أمرها بسيطة التخطيط والمبانى ، ولكنها ما لبثت أن ازداد عمرانها ، وكثرت دورها ، وحسنت عمارتها ، وتعددت

شوارعها وطرقاتها ، وعمرت أسواقها ، وتقدمت صناعاتها ، وحفلت
بالفقهاء والمحدثين وأهل العلم . وبالجمله فقد أصبحت مدينة عامرة ، طار
صيتها ، وطبقت الخافقين شهرتها ، واجتذبت إليها الزائرين والسائحين من
مختلف أنحاء العالم

البنائى :

وكانت الدور فى أول الأمر تبنى من اللبن ، ومن طبقة واحدة ، كما
هو الحال اليوم فى كثير من ريف مصر . ويحكى عن خارجة بن حذافة أنه
بنى غرفة فوق داره فنهاء الخليفة عمر بن الخطاب عن ذلك ، وكتب الى
عمرو بن العاص يقول : « سلام ، أما بعد ، فانه بلغنى أن خارجة بن حذافة
بنى غرفة ، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه ، فاذا أتاك
كتابى هذا فاهدمها ان شاء الله والسلام » (١)

ثم أخذت عمارة الدور فى التقدم بالتدريج ، متمشية مع مقتضيات
الأحوال ، وسنة التقدم والرقى ، وحاجيات السكان ، وقد دلت أعمال
التنقيب التى قام بها المرحوم على بهجت سنة ١٩١٤ م . فى حفائر الفسطاط
أن الدور « قوامها الآجر - الطوب المحروق - تتخلله لحامات ثخينة ،
ومونة متخذة من الجير والقصرمل ، أو من الجير والحمره ، وبلاط من الحجر
الجيرى ، وأنايب مصنوعة من الفخار ، وشباك من المجارير المنقورة فى
الصخر » (٢)

وتشتمل بعض هذه الدور على أفنية بوسطها فسقيات تصلى إليها المياه ،
وتنصرف منها فى مجار مبلطة . وتحيط بتلك الأفنية أروقة وقاعات وغرف ،
بعضها لسكنى الحريم ، والبعض الآخر للاستقبال . كما يحددها من الجنوب
أحواض الزهور ، وتظللها من جهة الغرب الأشجار (٣)

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ، ص ١٠٤

(٢) حفائر الفسطاط ، للمرحوم على بهجت ص ١٣١

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦

ولكن يجب أن يكون مفهوماً أن الدور التي كشفت عنها هذه الحفائر لا يمكن أن ترجع إلى عصر الفتح ، وإنما ترجع إلى عصر ازدهار الفسطاط ، وبلوغها أوج عزها ، حوالي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)

وكانت المباني تزخرف بوضع الآجر على هيئات مخصوصة ، ومن ألوان مختلفة ، فيوضع الحجر الأبيض والآجر الأحمر على هيئة تعاريج ومشبكات وكحلة اللحات بمونة بيضاء ناصعة ، بارزة قليلاً من وجه الجدار^(١). ولقد استعيرت عن هذه الطريقة في العصرين الطولوني والفاطمي بطلاء الأبنية بالجص من الداخل والخارج . فلما استخدم الحجر بدل الآجر في أبنية القاهرة ، منذ أواخر العصر الفاطمي ، قضى بطبيعة الحال على هذه الطريقة ، وصارت الزخارف تحفر في الأحجار

وازدانت الفسطاط بكثير من الدور والقصور والبساتين ، من ذلك دار عمرو الكبرى ، ودار ابنه عبد الله ، التي عرفت بدار عمرو الصغرى ، وكانتا شرقي جامع عمرو كما أسلفنا ، ودار الزبير بن العوام ، غربي دار عبد الله بن عمرو . وشيد عبد الله بن سعد بن أبي سرح لنفسه قصراً كبيراً ، كان يعرف بقصر الجن ، لكبره وضخامته . كما أمر مروان بن الحكم ببناء الدار البيضاء التي سكنها في أثناء إقامته بمصر . كذلك أمر عبد العزيز ابن مروان ببناء الدار الذهبية سنة ٦٧ هـ (٦٨٦ - ٨٧ م) ، غربي المسجد الجامع ، وكان يطلق عليها المدينة ، لعظمتها

ومعروف أن الإسلام قد حض على النظافة ، حتى أنه اعتبرها من الإيمان « النظافة من الإيمان » ، فأمر بالوضوء قبل كل صلاة خمس مرات في اليوم ، والاغتسال ، لذلك كثرت بالفسطاط الحمامات ، ويذكر المقرئ أنه كان يوجد بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً ، وكانت حمامات القاهرة في عام ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) ثمانين حماماً فقط^(٢)

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٦
(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تأليف آدم متز وتعريب الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ، ج ٢ ص ١٨٦

وبلغ عدد الطبقات ، فى بعض الدور بالفسطاط ، وهى فى أوج عزها ، ثمانيا ، فبدت كالمناثر ، وأسفل الدور غير مسكون . وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس ، وهذا يدل على سعتها ، وعظم ارتفاعها . ويقول ناصر خسرو ، الرحالة الفارسى المشهور : « وترى مصر ، من بعيد كأنها جبل ، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات .. وبها أسواق وشوارع ، توقد فيها القناديل ، لأن ضوء الشمس لا يصل الى أرضها - لأنها مسقوفة » (١)

وكان الحمالون يحملون الماء من النيل الى المنازل فى الروايا «القرب» ، ويصعدون الدور ، كل طبقة بنصف دائق . ويحكى ناصر خسرو أنه كان بمصر والقاهرة عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ - ٤٩ م) اثنان وخمسون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب ، فى هاتين المدينتين (٢)

ومما ذكره أيضا أن ركوب الخيل كان وقفا على الجند والمتصلين بالجيش . بينما كان سائر الأهلى ينتقلون على حمير ذات سروج جميلة . وكان فى الفسطاط والقاهرة نحو خمسين ألف حمار للتأجير ، يشاهد المرء عددا كبيرا منها عند مداخل الشوارع والأسواق (٣)

الحالة الاقتصادية :

كانت الفسطاط مركزا اقتصاديا عظيما ، وسوقا تجاريا كبيرا ، بالإضافة الى أنها قصبة الحكم ، وعاصمة البلاد . ولم تفقد شهرتها كسوق تجارى عظيم حتى بعد بناء القطائع والعسكر ، بل والقاهرة أيضا . فظلت مركز الحركة التجارية والاقتصادية . ذلك لسهولة اتصالها بداخلية البلاد ، وبالعالم الخارجى أيضا

فقد كانت على اتصال وثيق بداخلية البلاد ، بواسطة النيل ، فتزد إليها

(١) سفرنامه لناصر خسرو علوى ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٥٨
(٢) المصدر السابق ص ٤٦ ، والحضارة الإسلامية لآدم مزر ، ج ٢ ص ٢٢٩
(٣) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، للمرحوم زكى محمد حسن ص ٥٩

الحاصلات والسلع من كل من الوجهين القبلى والبحرى . وفى ذلك يقول ابن بطوطة الرحالة المشهور : « وان بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان والرعية ، تمر صاعدة الى الصعيد ، ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط ، بأنواع الخيرات والمرافق » (١) . كما ذكر ناصر خسرو أنه « كان للباعة » (بالقطاعى) دكاكين بمدينة مصر «الفسطاط» على ساحل النيل، وكانت البضائع تفرغ على أبوابهم ، وكان الازدحام من الشدة بحيث كان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب » (٢)

كانت الفسطاط تغص بالأسواق المليئة بمختلف السلع والمتاجر ، فقد بنى عبد العزيز بن مروان قيسارية العسل ، وقيسارية الجبال ، وقيسارية الكباش ، وقيسارية البز (المنسوجات) . وقد أسهب ناصر خسرو فى الكلام عن الفسطاط وعظمتها ، وبيوتها الشاهقة ، وجوامعها الكبيرة ، وحدائقها الغناء ، وصناعاتها الزاهرة ، ووصف الثروة فى أسواقها ، والازدحام فيها . وقال ان الحوانيت ملووءة بالسلع المختلفة ، والأقمشة الثمينة ، والذهب ، وسائر الحلى ، حتى ان المشتري لا يجد فيها محلا يجلس فيه (٣) . وكان شديد الإعجاب بسوق القناديل - بجوار جامع عمرو - فقال انه لم يعرف مثله فى أى بلد آخر ، وان التحف النادرة والثمينة كانت تحمل اليه من أصقاع العالم كله (٤) . وترجع هذه التسمية الى أن سكان هذا الحى كان لكل منهم قنديل على باب مسكنه.

كذلك كانت تفد على الفسطاط السلع والمتاجر من بحر الروم (البحر المتوسط) بواسطة النيل أيضا ، ومن بحر القلزم (البحر الأحمر) بواسطة الدواب أو خليج أمير المؤمنين ، ومما كانت تشتمل عليه سلع بحر الروم

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٦٧ و ٦٩
(٢) و (٣) سفرنامه لناصر خسرو هلوى ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، ص ٦٢
(٤) سفرنامه ، ص ٥٩

الجواري والغلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف .
ومما تشتمل عليه متاجر بحر القلزم المسك والعود والكافور والدارصيني،
وغير ذلك مما يحمل من السند والهند والصين (١)

خليج أمير المؤمنين :

وخليج أمير المؤمنين ترعة كان قد أمر بحفرها نحاو فرعون مصر ،
لتوصيل النيل بالبحر الأحمر ، ثم ردمت في أواخر حكم الرومان لمصر . فلما
كان الفتح العربي ، جدد عمرو بن العاص حفرها سنة ٢٣ هـ (٦٤٣ —
٤٤ م) (٢) ، بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لهذا أطلق عليها اسم خليج
أمير المؤمنين . وكانت هذه الترعة تخرج من فم الخليج ، شمالى مصر القديمة ،
متجهة الى الشمال حتى نهاية القاهرة . وتقر بعد ذلك فى الأراضى الزراعية ،
حيث مجرى الترعة الاسماعيلية الى العباسية ، بمديرية الشرقية ثم الى مدينة
الاسماعيلية ، ومنها الى القلزم (السويس) على البحر الأحمر (٣)

وقد أقيم على هذا الخليج فى العهود التالية كثير من القناطر ، لتييسر
للناس عبوره ، سنورد أسماء أشهرها فى مواضعها (٤)

وقد كان هذا الخليج عرضة للأهواء السياسية ، فيردم اذا أراد أحد
الخلفاء الضغط السياسى على مصر ، وتجويع سكانها ، وتحويل تجارة
الهند عنها الى بغداد ووادى الفرات ، كما فعل الخليفة المنصور العباسى
الحالة العلمية :

اتخذت الحركة العلمية فى أوائل عصر الفتح شكلا دينيا ، حيث كان
الناس بحاجة الى من يفقههم فى أمور دينهم ، ويعلمهم أصول الدين

(١) ابن خرداذية ، ص ١٥٣

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤٤

(٣) وقد ردم هذا الخليج فى المسافة الواقعة بمدينة القاهرة سنة ١٨٩٦ م ، وحل محله شارع
الخليج المصرى (شارع بورسعيد حاليا)

(٤) من هذه القناطر قنطرة عبد العزيز بن مروان ، التى بناها عبد العزيز بن مروان والى
مصر فى سنة ٦٩ هـ ، ومكانها اليوم النقطة الواقعة بشارع الخليج المصرى ، تجاه مدخل حكر
أقبضا بأرض جنيحة لآظ . (النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٨٨)

الاسلامى ، أكثر من حاجتهم الى العلوم الدنيوية والفلسفية ، تلك الأصول التى اجتمعت فى القرآن الكريم والحديث والسنة . وكان من حظ مصر أن حضر اليها مع جيش المسلمين عدد كبير من الصحابة ، الذين تشربوا الدين خالصا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فتلقى عنهم أهل مصر ، فصارت القسطنطينية معقلا حصينا من معاقل الدين ، تنافس المدينة وبغداد والبصرة ودمشق وغيرها من أمهات المدن الاسلامية . ومن هؤلاء الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح العامري ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وخارجة بن حذافة العدوى ، ومسلمة بن مخلد ، وكثير غيرهم ممن وفدوا على مصر بعد الفتح ، لكثرة خيراتها ، وخصب أرضها ، وطيب هوائها

وكانت معظم دروس الفقه والكلام تعطى فى المسجد ، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدي المدرس ، وكان يتخذ مكانه الى جانب عمود فى المسجد ، مستندا بظهره اليه ان أمكن . وقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة مجلس وعشرة من مجالس العلم (١) . وأشهر من علّم بمصر من الصحابة بعد الفتح عبد الله بن عمرو بن العاص ، ويعتبر بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية ، اذ أخذ عنه كثير من أهلها ، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث ، وقد بلغ قرابة مائة حديث (٢)

وممن اشتهر من علماء مصر وفقهائها الأمير عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي ، والى مصر المتوفى بجلوان والمدفون بالقسطنطين سنة ست وثمانين هجرية (٧٠٥م) وقد اشتغل برواية الحديث ، وله مناقب كثيرة (٣) . ويزيد بن خبيب ، واسمه سويد الأزدي أبو رجاء المصرى ، وقد كان فقيه مصر وشيخها ومفتيها ، ولد سنة اثنتين وخمسين بمصر ، وتوفى بها سنة ثمان

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ص ٣٥١

(٢) مصر فى فجر الاسلام ، لسيدة اسماعيل كاشف ص ٣١٦

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٠ ، والمقرئى ج ١ ص ٣٠٢ طبعة بولاق

الباب الثانى

العسكر

- ١ -

مُنَى مروان الثانى ، آخر خلفاء بنى أمية ، بهزيمة ساحقة ، أمام جيوش بنى العباس ، فى موقعة الزاب بالقرب من الموصل ، فركن الى الفرار ، واتجه صوب دمشق ، ثم التجأ الى مصر ، ليتخذ منها قاعدة لمهاجمة العباسيين ، واستعادة ملكه المسلوب ، وعرشه المتداعى . ولكن أباعون ، وزميله صالح بن على ، القائدين العباسيين ، لم يتركاه له فرصة لتحقيق أمله ، وظلا يطاردانه حتى قبضا عليه فى قرية أبى صير ، من أعمال الجزيرة ، حيث قتلاه ، وبذلك انقطع آخر خيط فى نسيج دولة الأمويين ، واندك ملكهم ، وقامت على أنقاضه دولة العباسيين ، الذين ورثوا حكم مصر ، ضمن ما ورثوه من أملاك الدولة البائدة

وكما نقل العباسيون قسبة الخلافة من دمشق ، التى ارتبطت بذكر الأمويين ، الى بلاد العراق ، حيث شيدوا لهم حاضرة جديدة ، هى بغداد ، كذلك شرع القائدان أبو عون وصالح سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) فى بناء عاصمة جديدة لمصر ، بدل القسطاط ، سميها العسكر ، فى الفضاء الذى عسكرت فيه جنودهما وتجمعت ، عند مطاردتهما لمروان الثانى ، وكانت تقع شمالى القسطاط ، فيما يعرف بالحرء القصوى ، ويشرف عليها جبل يشكر ، الذى شيد فوقه أحمد بن طولون فيما بعد جامع المشهور

- ٢ -

موقع العسكر :

يؤخذ من وصف المقرئى لموقع العسكر فى خطه أنها كانت تحتد

الباب الثالث

المصانع

- ١ -

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، كما هو معروف . لذا كانت لهم الخطوة عند خلفائها الأولين . فقوى نفوذهم ، وعلا شأنهم ، وصار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ، الذين اليهم المرجع في كل صغيرة وكبيرة من شئونها . ولما اشتدت وطأة النفوذ الفارسي ، حاول الخلفاء المتأخرون التخلص من ذلك النفوذ ، فاستبدلوا بالفرس قوادا وحراسا من الأتراك . وسرعان ما انتشر نفوذ هؤلاء ، وصاروا أصحاب الحول والطول في مقر الخلافة ، بل وفي أقاليمها وممتلكاتها . فالت مصر الى واحد من أولئك الأتراك ، هو الأمير بقبق أو بايكباك ، ثم الى الأمير برقوق . وأتاب كل منهما عنه في حكم مصر أحمد بن طولون ، وهو تركي الأصل مثلهما ، من اقليم بخارى ، في بلاد ما وراء النهر . وكان الأول زوج أم أحمد ، والثاني حماه ، أي أبا زوجته

قدم أحمد بن طولون الى مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) وبين جنبه آمال كبار ، فهو يريد أن ينشئ من مصر دولة تنافس الخلافة قوة وعظمة ، وأن يؤسس لها حاضرة تماثل «سُتْر من رأى» قصبة الخلافة في عهده ، والتي ولد فيها وترعرع ، وأعجب بجمال قصورها ، ورحابة ميادينها وعظمة مساجدها ومنشآتها . لذلك عتول منذ أن وطئت قدماه أرض مصر على إقامة العاصمة المرجوة ، فكان له ما أراد ، وأسمها القطائع ، ذلك لأنه أقطعها قطعا بين خدمه وحاشيته ورجال دولته . وشيد فيها القصور

والمستشفيات والملاجيء ، وأقام مسجده الجامع ، الذى ما زال يطاول
الزمن ببقائه ، درة فريدة بين مساجد مصر ، والذى يستحق بلا ريب أن
يطلق عليه اليوم اسم شيخ جوامع القاهرة ، اذ لا يزال تخطيطه ومبانيه
على الحال الأولى التى وجد عليها فى عهد منشئه

- ٢ -

موقع القطائع :

فالقطائع ثلثة العواصم الاسلامية فى مصر ، كانت تقع شمالى القسطنطينية
« وكان موقعها من قبلة الهواء التى صار مكانها الآن قلعة الجبل ،
الى جامع ابن طولون ، وهو طول القطائع . وأما عرضها ، فانه كان من
أول الرملة (١) من تحت القلعة ، الى الموضع الذى يعرف الآن بالأرض
انصفراء ، عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن زين العابدين . وكانت
مساحة القطائع ميلا فى ميل » (٢)

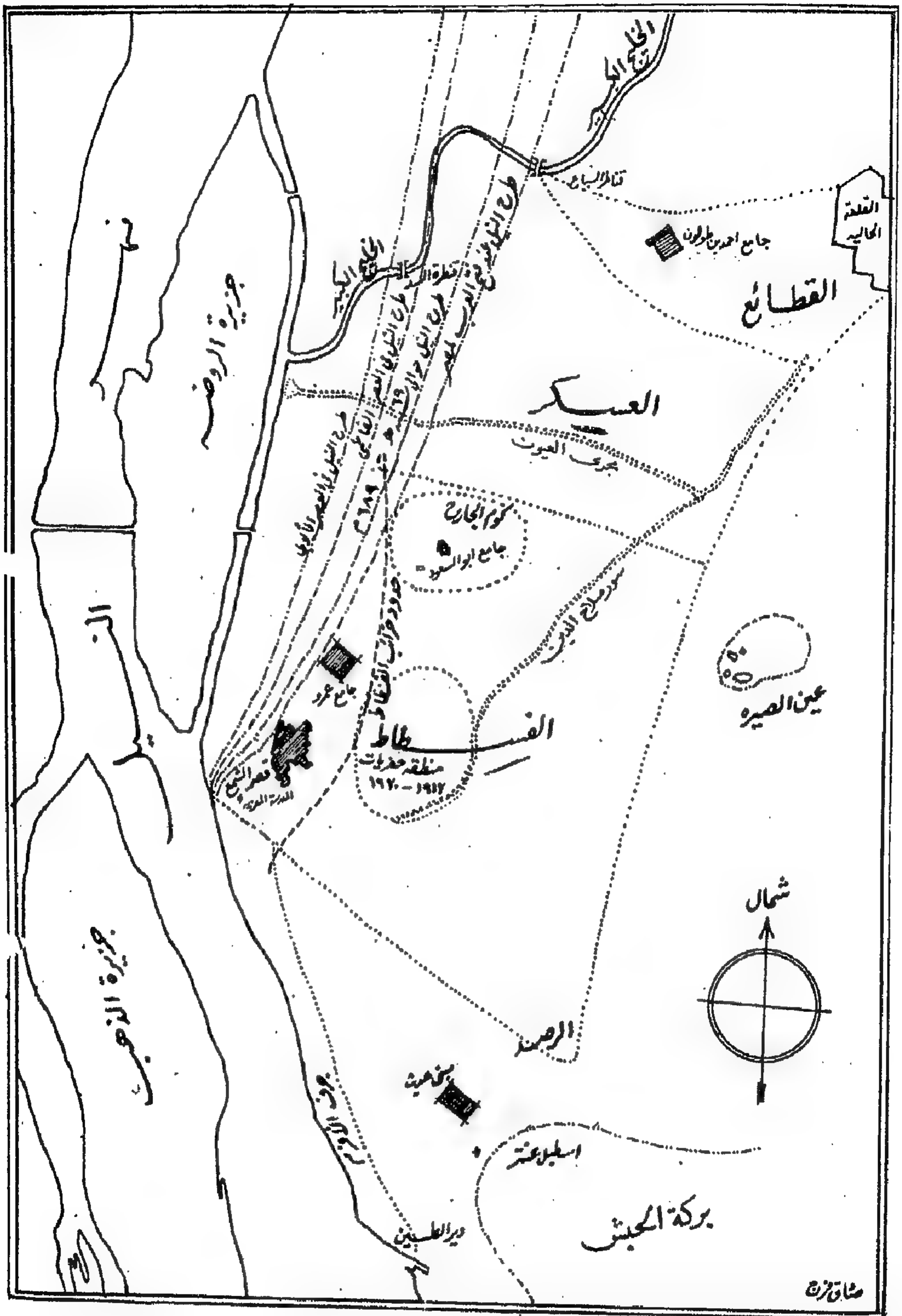
وقد حدد العلامة الأثرى المرحوم محمد رمزى هذه المدينة كما يلى :
« الحد البحرى ، ويبدأ من جامع سنجر الجاوى حتى باب العزب بالقلعة ،
والحد الشرقى سور القلعة ، من باب العزب ، حتى جامع السلطان الأشرف
قائسوة القورى ، عند باب اليسار . المعروف الآن بباب الجبل . والحد
الغربى ويبدأ من جامع القورى المذكور ، حتى جامع سيدى على زين
العابدين . والحد الغربى من جامع سيدى على زين العابدين ، وينتهى
بجامع سنجر الجاوى » (٣)

وقد تدخلت القطائع فى العسكر ، وشغلت الجزء المعروف الآن بقلعة
الكيش وبتلول زينهم

(١) سوق للبنان والحمير والجمال بجوار القلعة

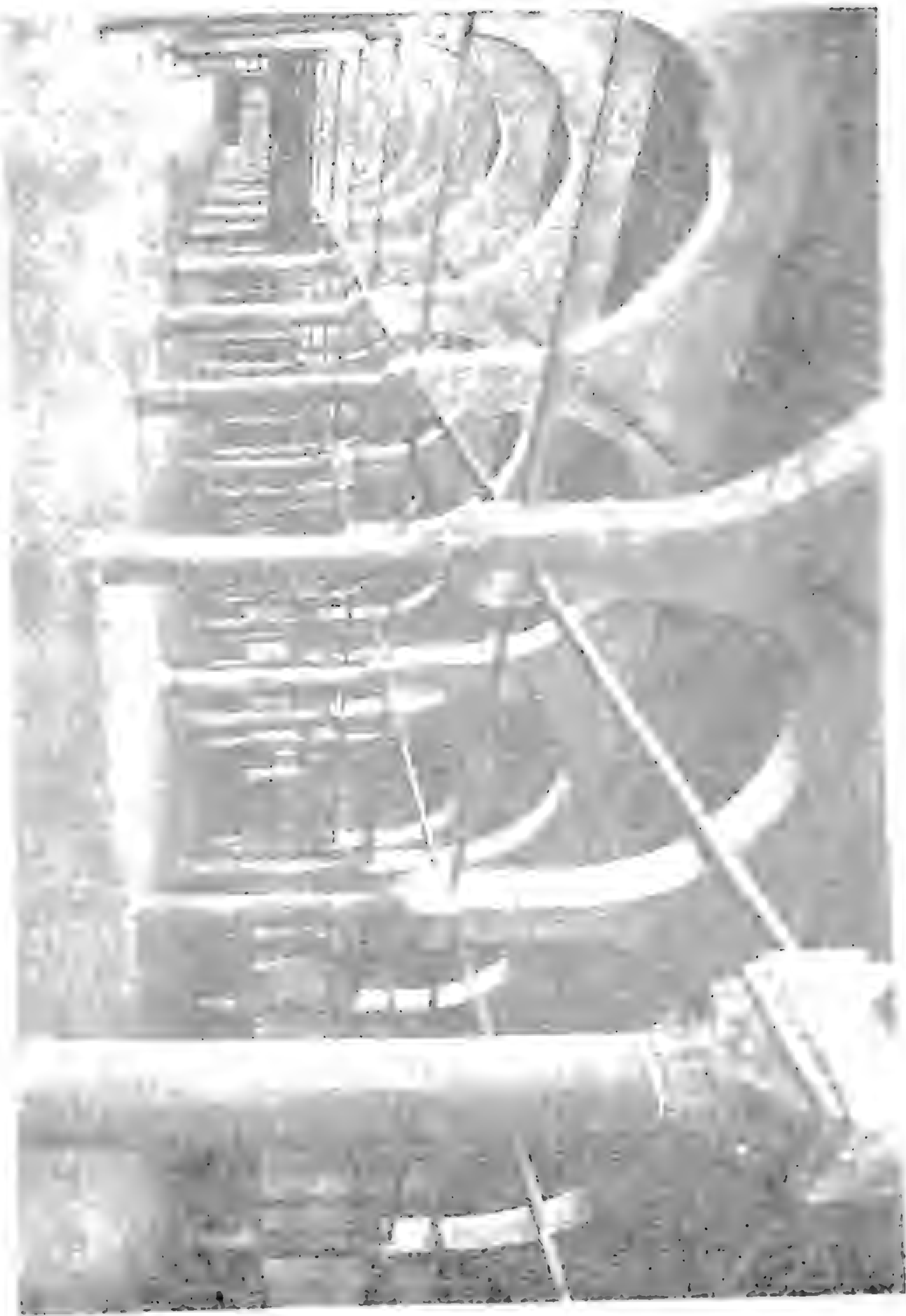
(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٤

(٣) الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة للمرحوم الاستاذ محمد رمزى



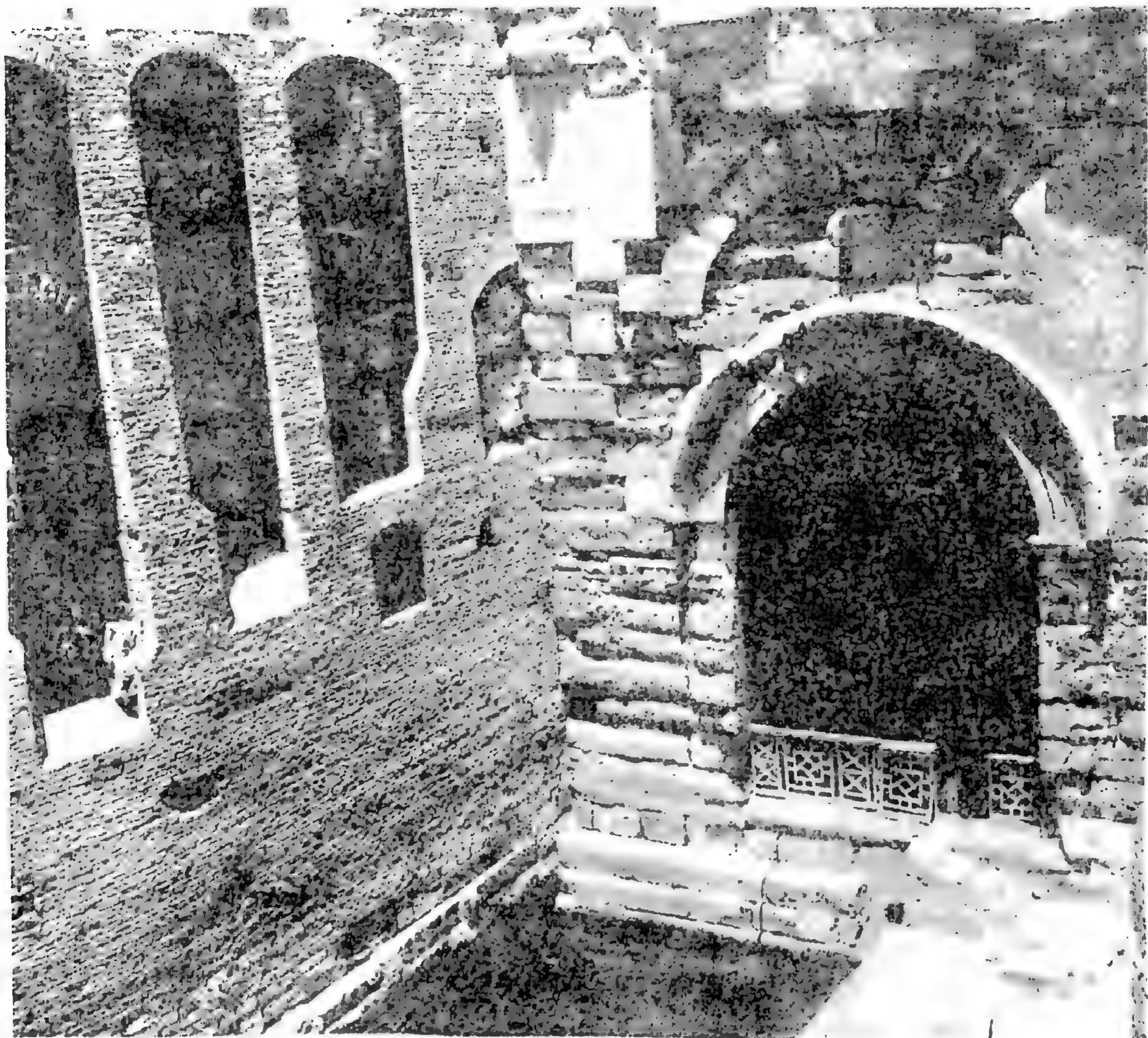
رسم تقريبي يوضح مواقع الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع .. كما يوضح
تحويل الشاطئ الشرقي للنيل نحو الغرب منذ الفتح العربي حتى الوقت الحالي

الايوان الشرقي (ايوان القبلة) بجامع عمرو بن العاص ويرى به عدد كبير من الأعمدة القديمة ذات الارتفاع المختلفة : ترتفع عليها عقود مدنية



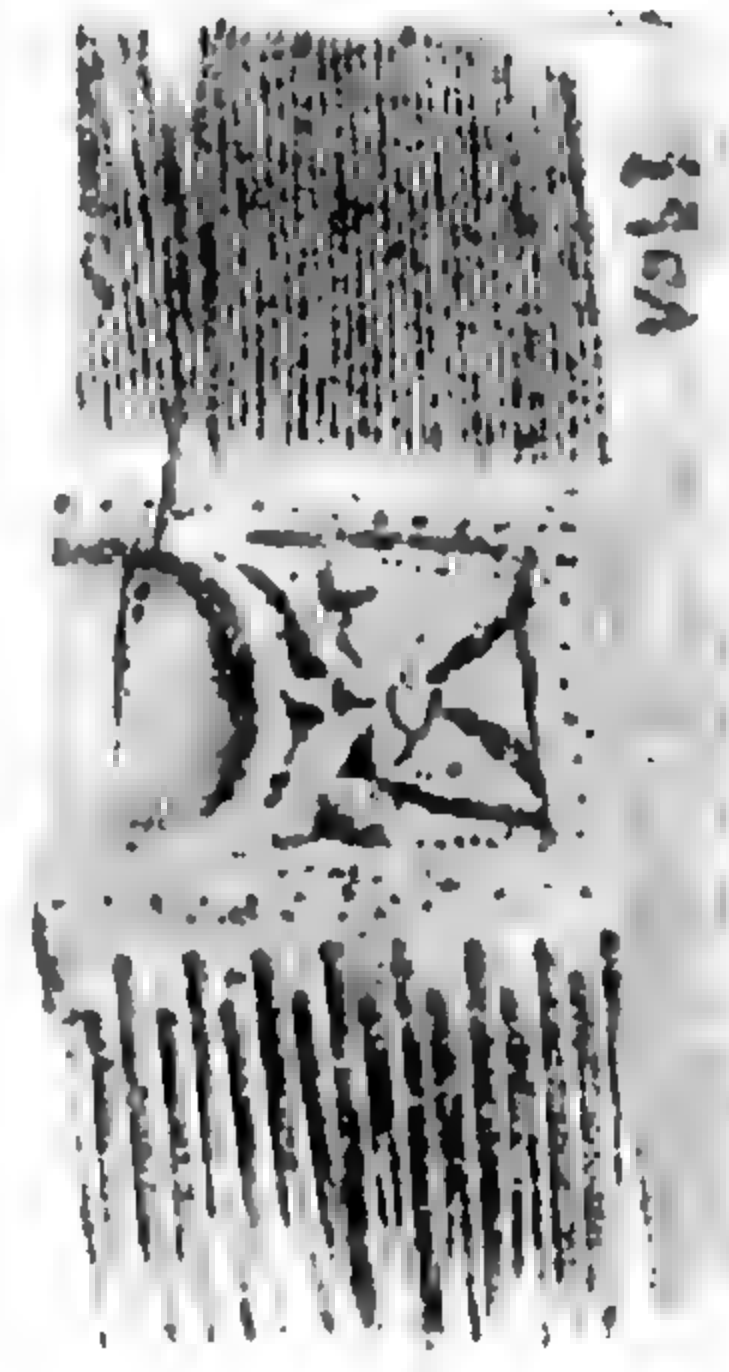
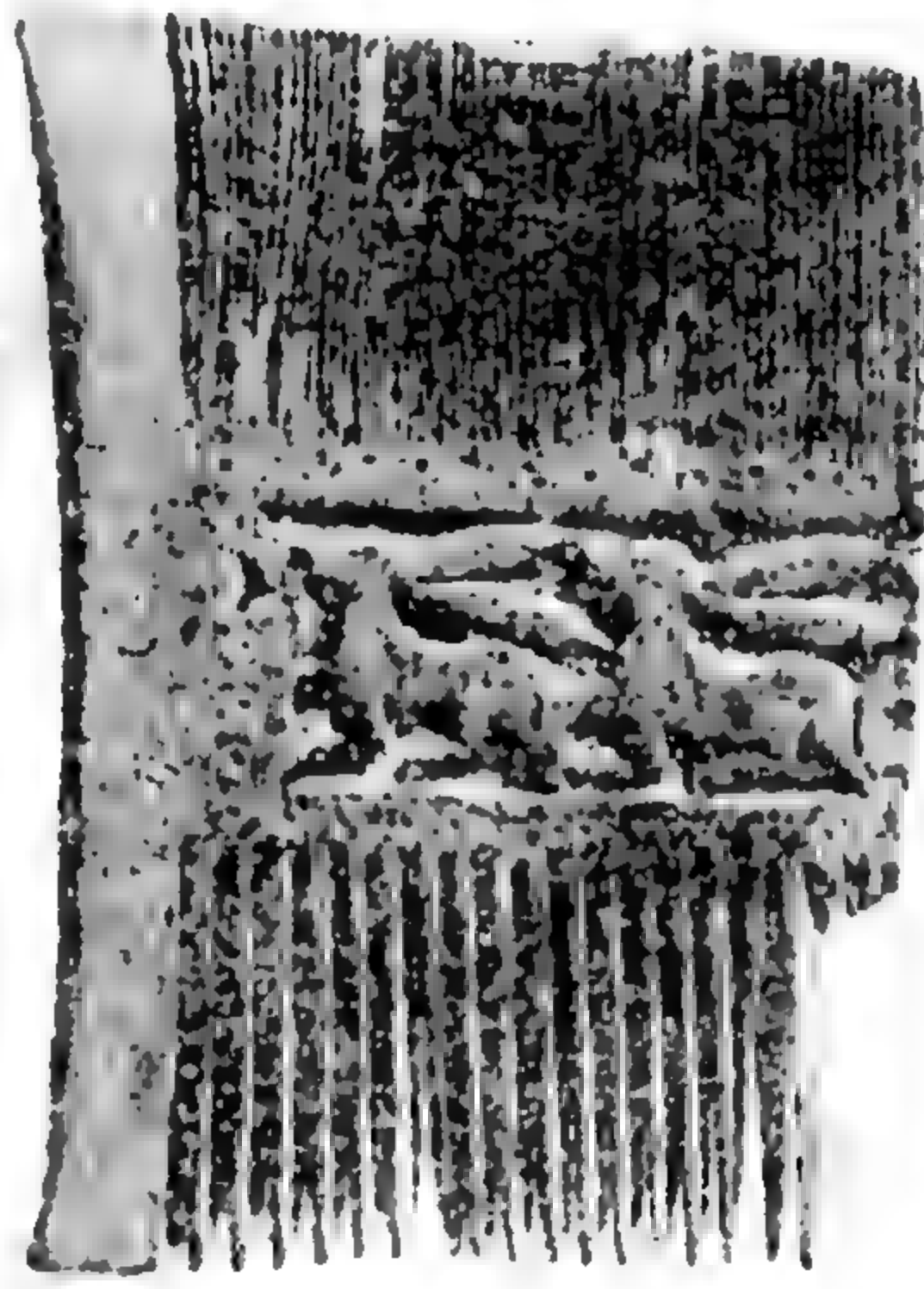


أحد الدور بمدينة الفسطاط ، وقد كشفت عنها حفريات المتحف
الإسلامي بالقاهرة (من كتاب حفريات الفسطاط للمرحوم علي بهجت)



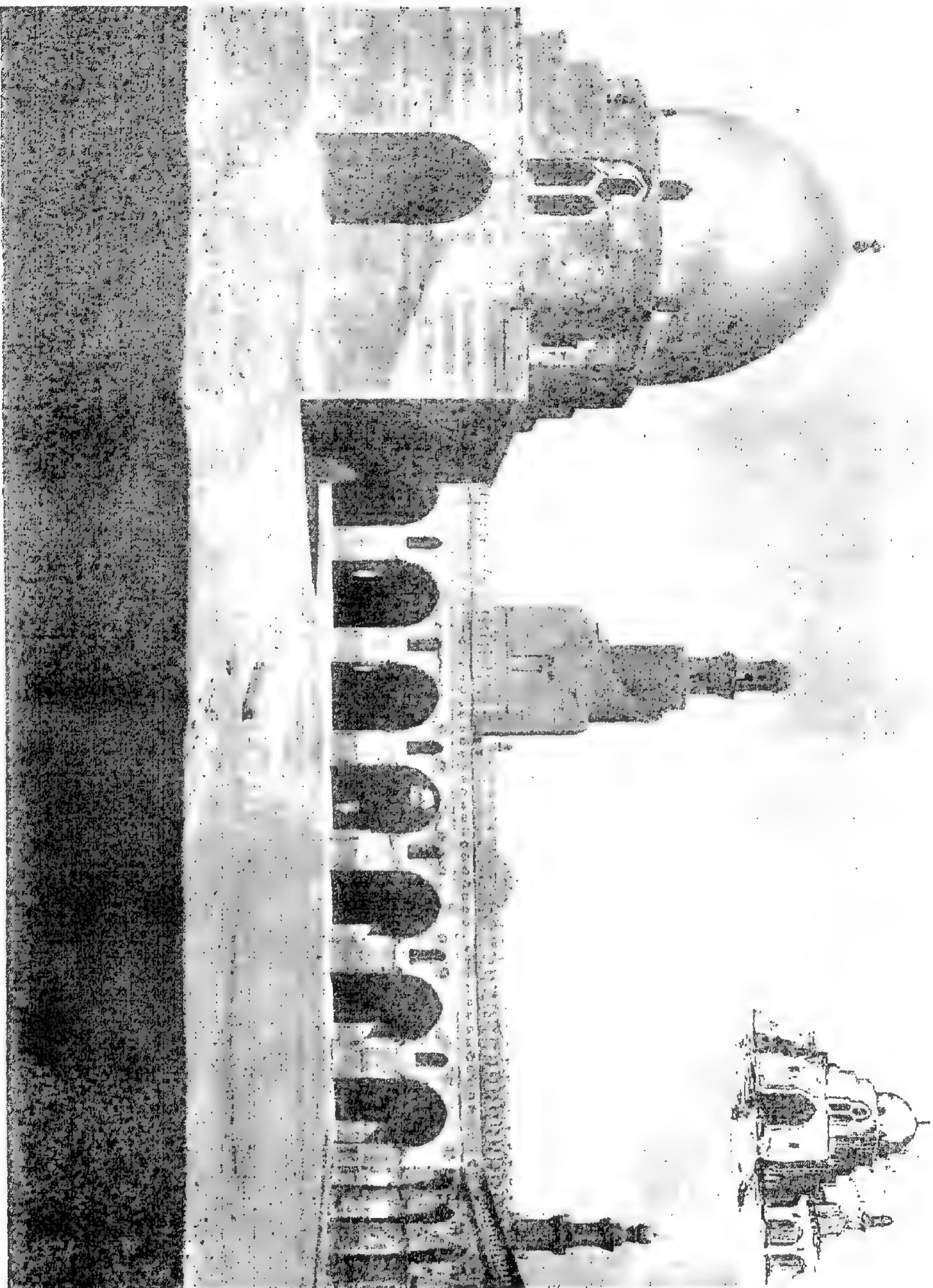
باب حصن بابلون (قصر الشمع) وقد كانت مياه النيل تحف به وقت الفتح

مشاط مصنوعة من
لخشب بها زخارف
عقورة وجدت بحفريات
لفسطاط (من كتاب
نقريات الفسطاط
مرحوم علي بهجت)





اللوحة التذكارية بجامع أحمد بن طولون ويتضمن تاريخ إنشاء المسجد ، واسم منشئه ، ويوجد على أحد الأكتاف بالمسجد . ويرى على جانبي الكتف عمودان ، تاجاهما والأفرين الذي يعلوهم من الزخارف الجصية



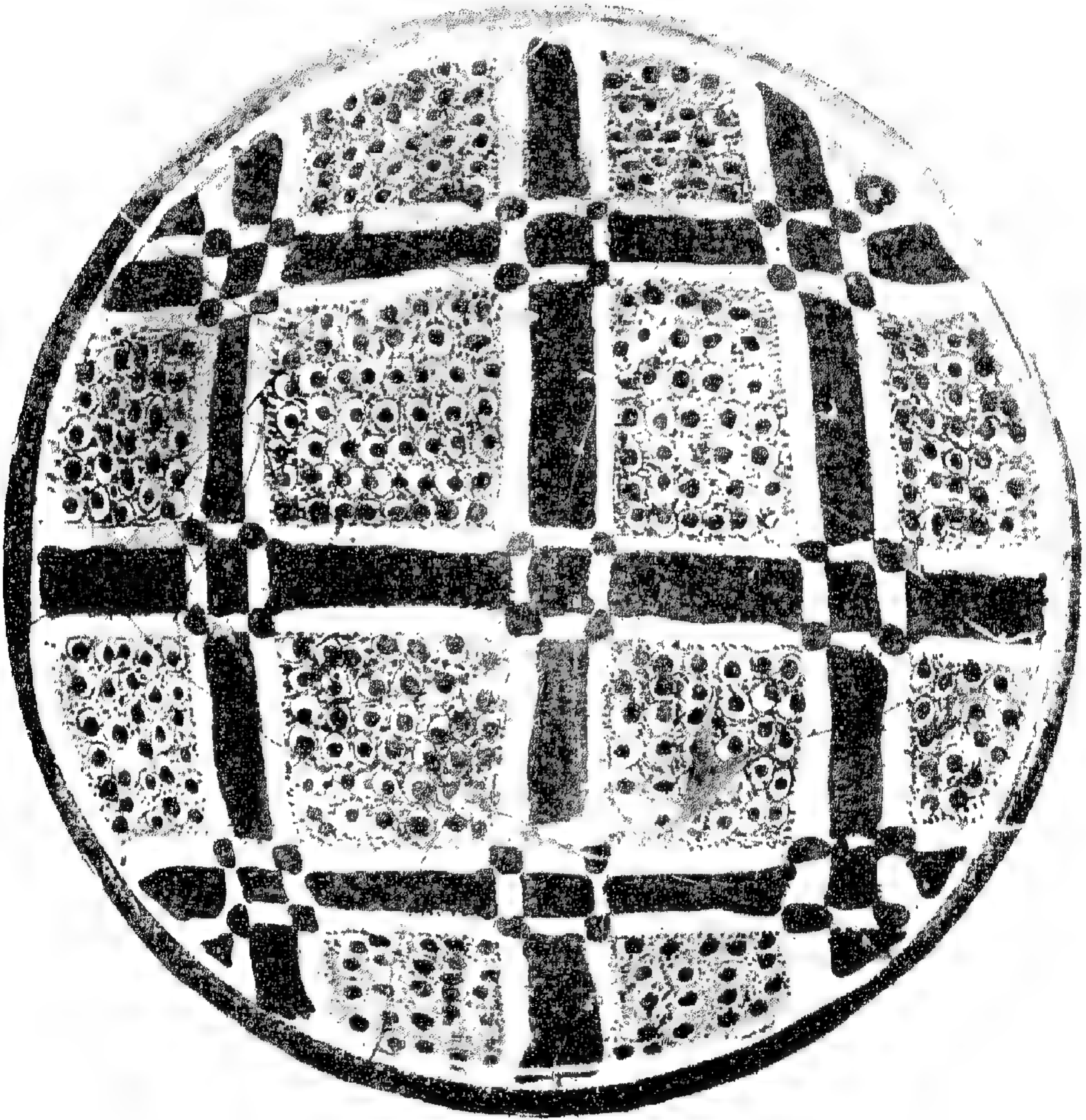
المدينة والميضأة بالمسجد الطولوني ، وكلاهما من العصر المملوكي . وتشاهد الدعائم (الاكتاف)
والفتحات التي تملؤها ، والزخارف الجميلة التي على شكل صرر وكلا الشرفات . . .



منبر الجامع الفولوني ، وقد صنع في العصر المملوكي ، والحراب
القديم وهو معاصر لإنشاء المسجد ، ويعلوه اقريز من الخط الكوفي
البسيط تقرأ فيه : لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم



حشوة من الخشب المحفور من العصر الطولوني ، قوام الزخرفة فيها
عصفوران متقابلان (محفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة)

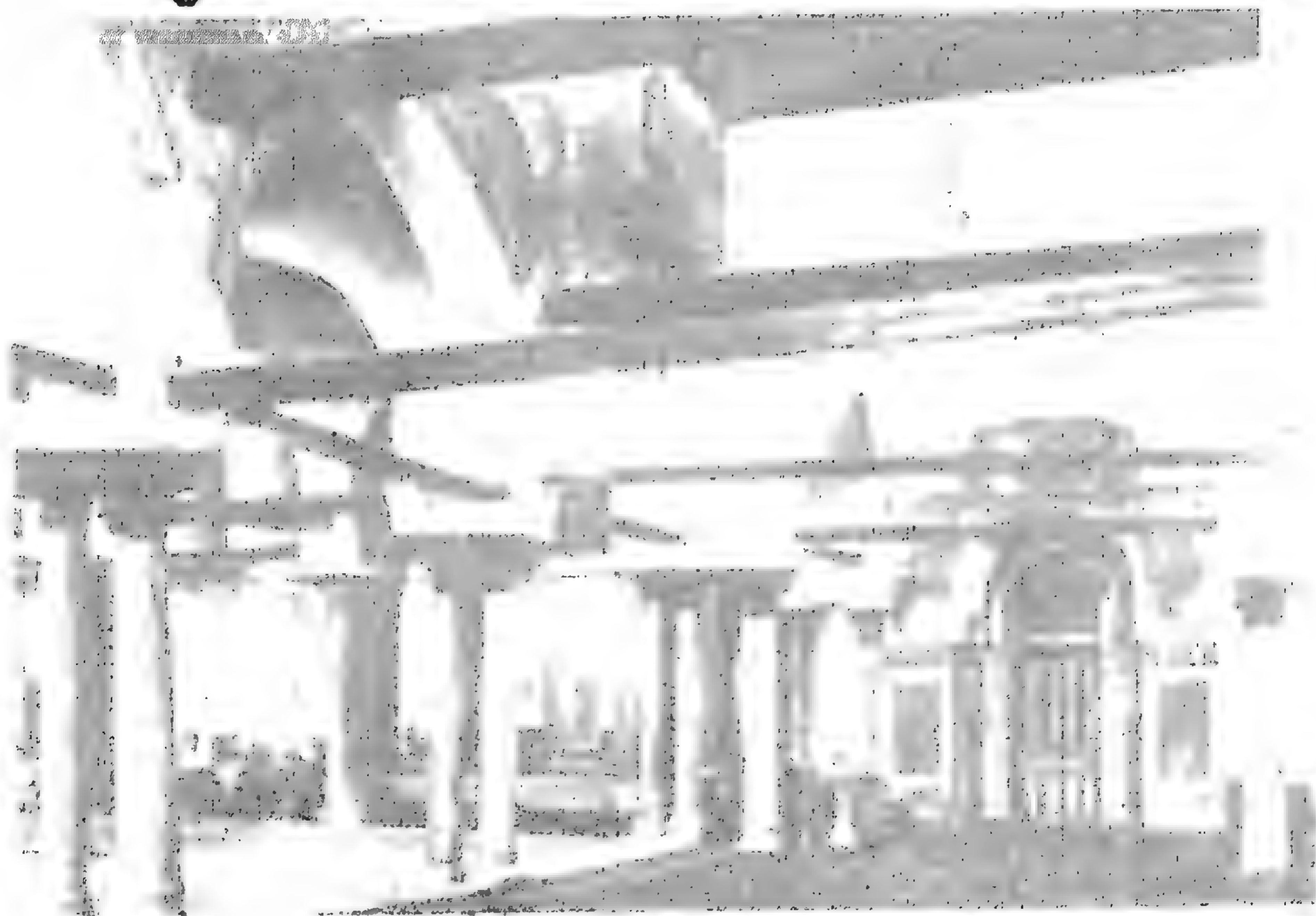


صحن من الخزف ذي البريق المعدنى من العصر الطولوني أو
العصر العباسى ، تتكون زخرفته من خطوط عريضة متقاطعة،
تحصر بينها مناطق مملوءة بالدوائر التى تتوسطها نقط حمراء
(محفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة)

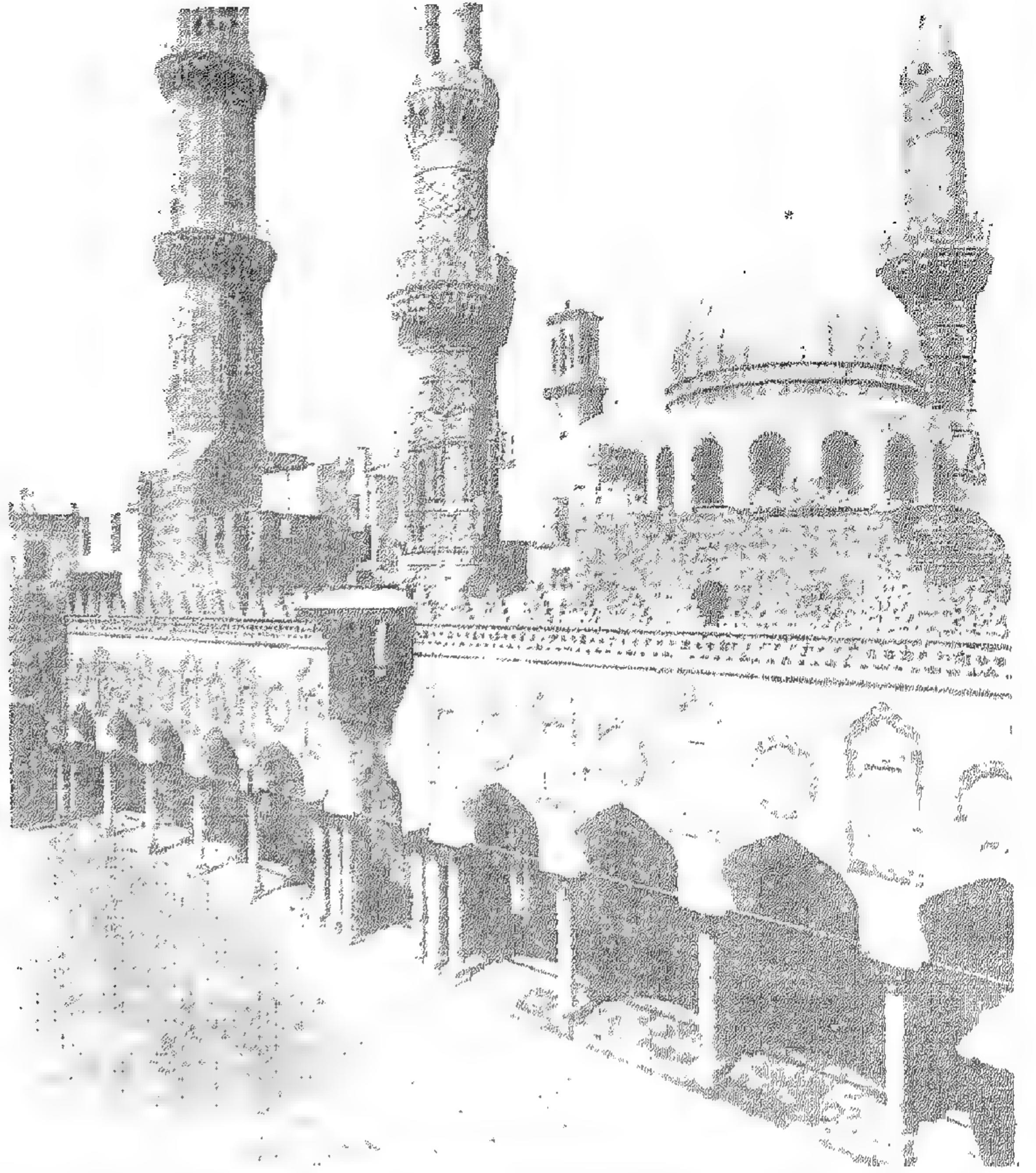
الواجهة الغربية للجامع الازهر .
ويرى الباب الغربى الكبير فى هذه
الواجهة ، وقد أنشأه الامير عبد
الرحمن كتملا سنة ١١٦٧ هـ



داخل الجامع الازهر ويظهر
به المجساز والمحراب المعزى
والعقود والاعمدة القديمة

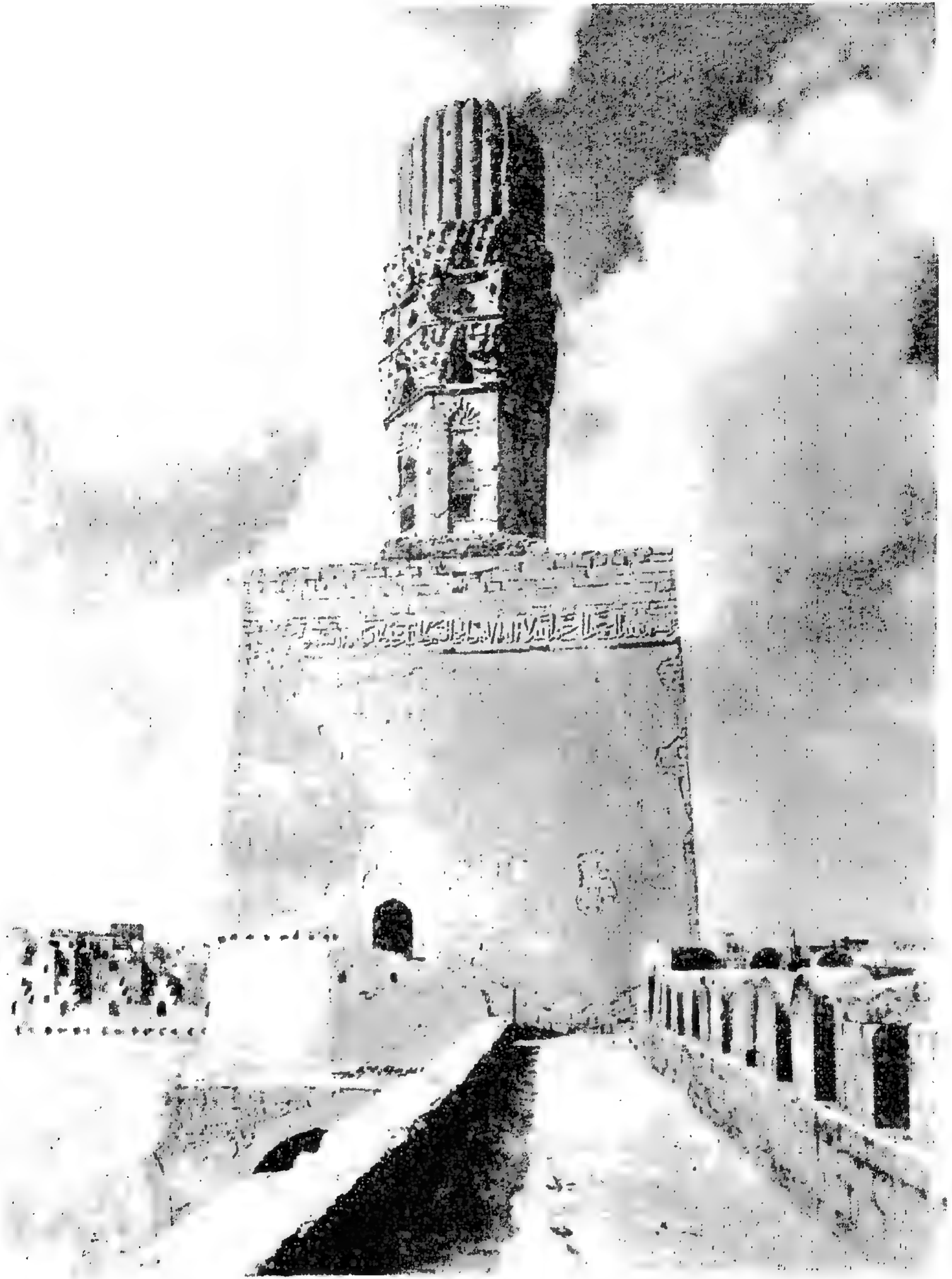


الجامع الازهر : الصحن ، وترى على
الجدران زخارف جصية . كذلك
ترى مئذنة جامع قايتباي ومئذنة
جامع الغوري ذات الرأسين . .

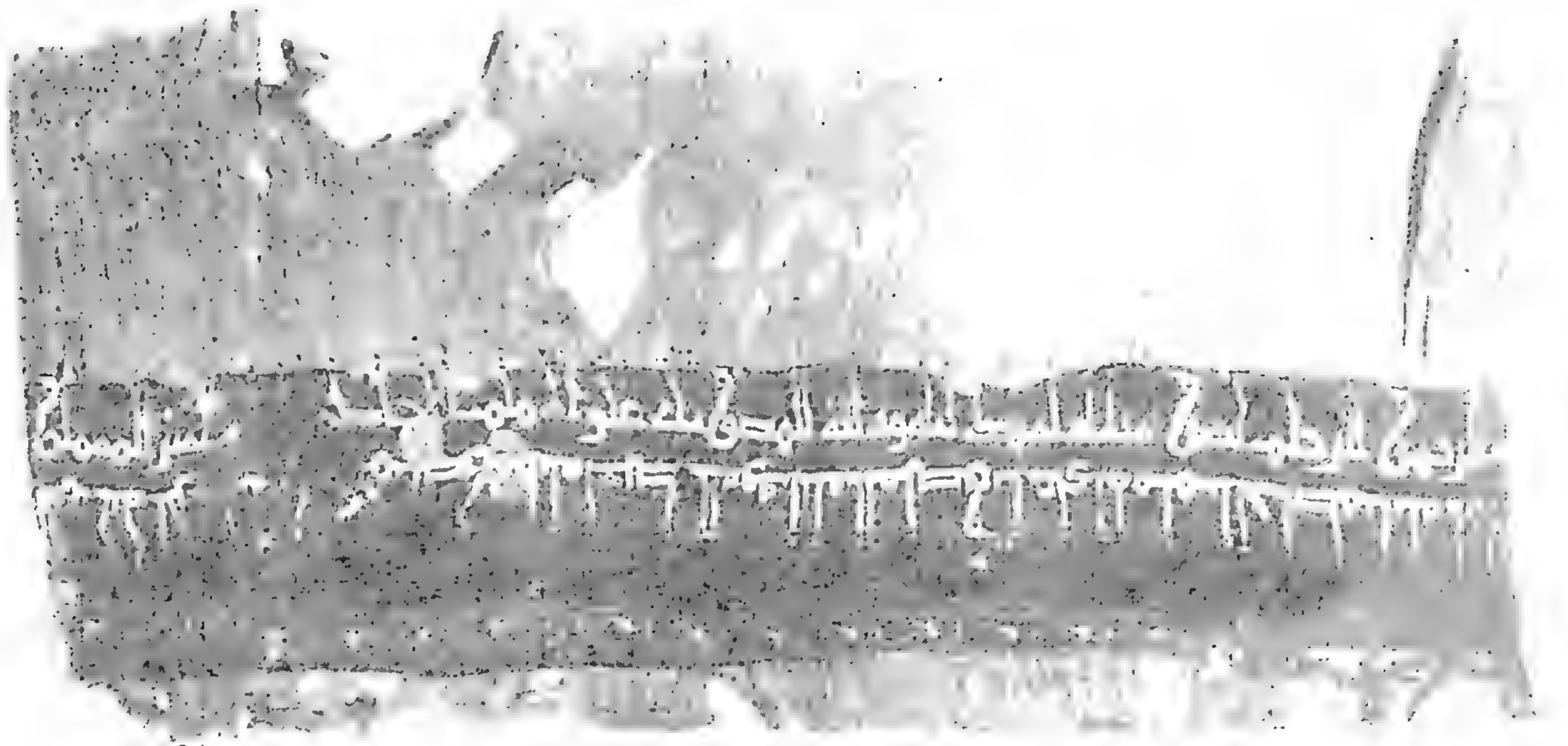


الزخارف الجصية النباتية ،
والكتابات الكوفية المشجرة
على عقود الجامع الازهر

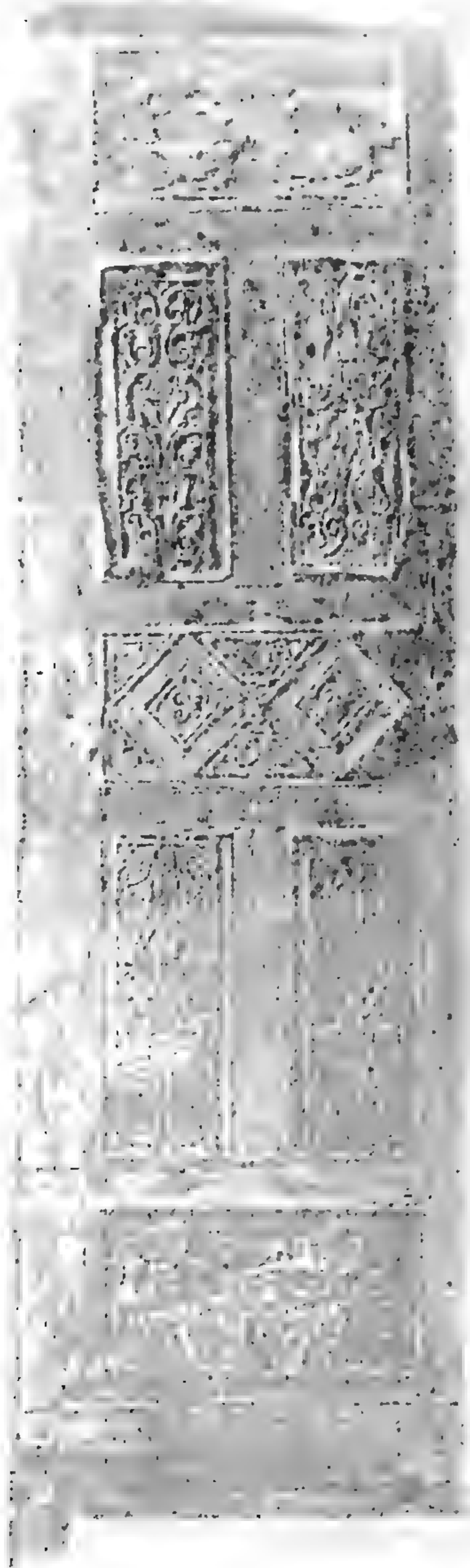




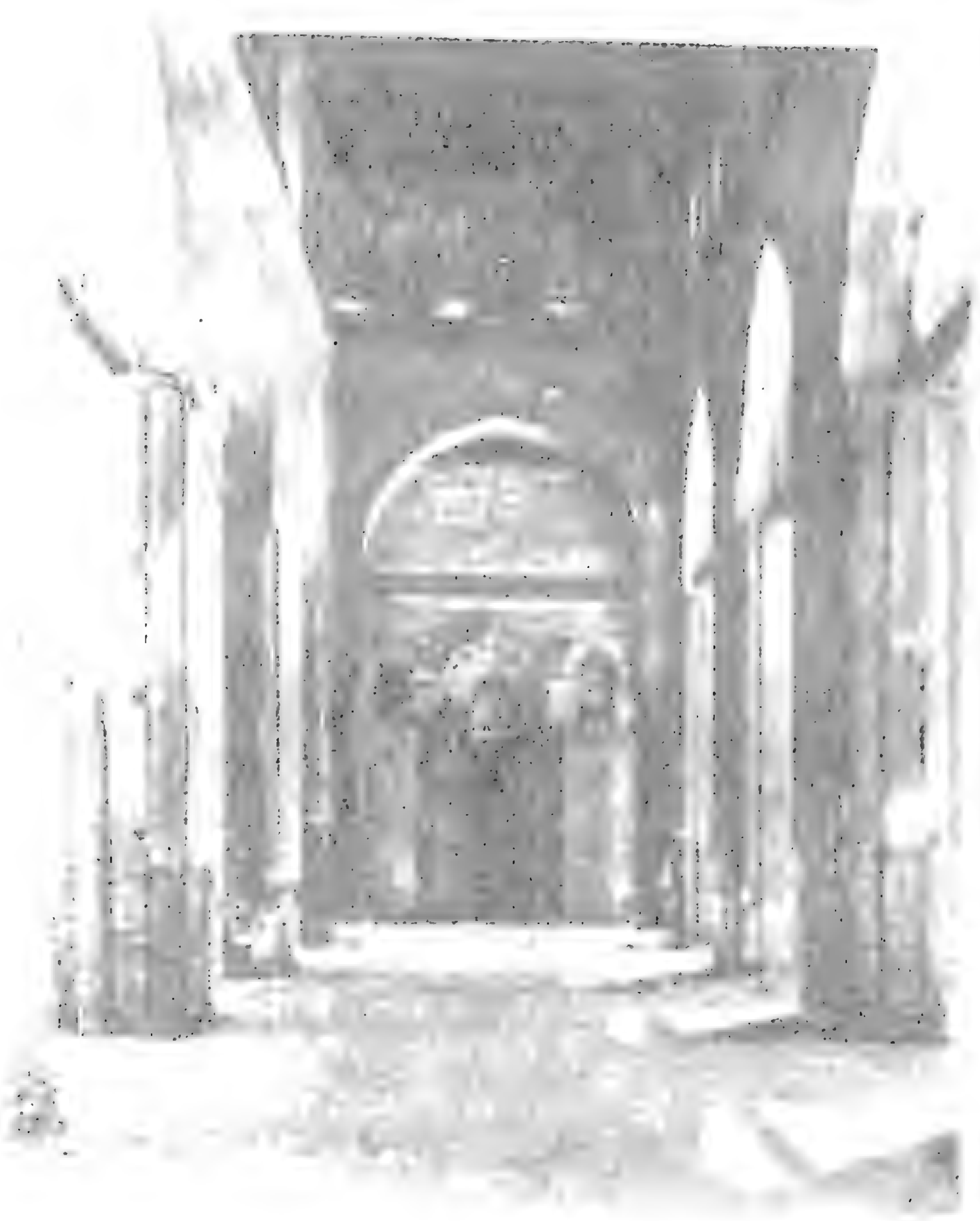
المنارة البحرية لمسجد الحاكم وجزؤها العلوى من الأجر . وترى الى اليسار بعض الشرافات المسننة التى تعلو الجدران الداخلية ، وإلى اليمين جزء من سور بدر الجمالى والطريق الموصل الى الأبراج



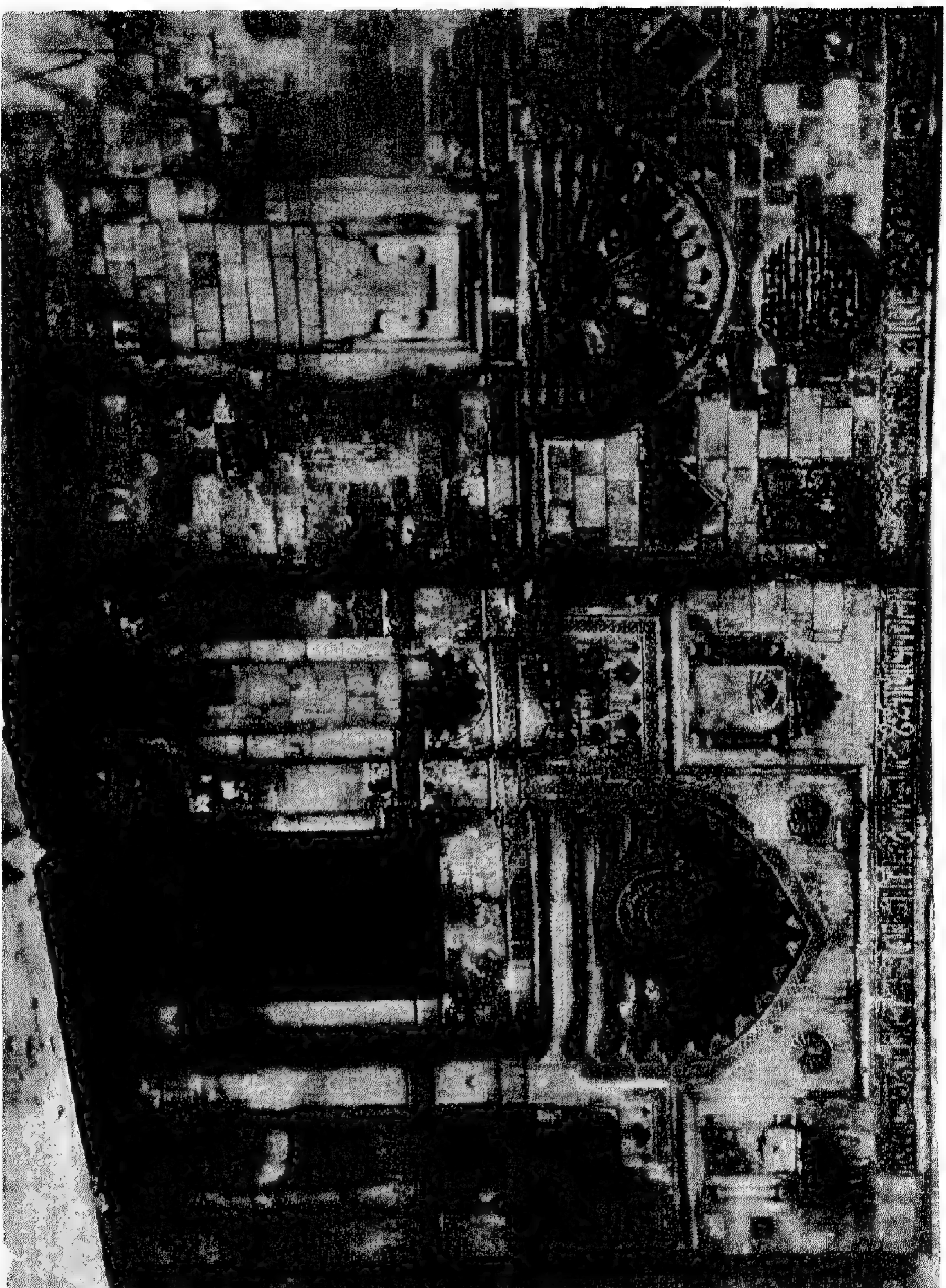
قطعة من نسيج من السكتان
والحرير باسم الخليفة
الحاكم بأمر الله (بداية
القرن الحادى عشر
الميلادى) محفوظة
بالمتحف الاسلامى بالقاهرة



مصرعاً باب من الخشب
باسم الخليفة الحاكم بأمر الله
(بداية القرن الحادى عشر
الميلادى) محفوظان بالمتحف
الاسلامى بالقاهرة ، أصلهما
من الجامع الأزهر وزخارفهما
النباتية المحفورة بعمق ، متأثرة
بالطراز الطولونى أو العباسى



العقود المدية بمسجد الحياكم ، والدعائم وأشياء الأعمدة من الأجره
وهي شبيهة بالدعائم (الاكتشاف) في جامع أحمد بن طولون



الواجهة الرئيسية لمسجد الأقصر ، وتشاهد فيها التجاويف والمحاربات وصغوف المقرنصات الصغيرة ، وأقاربه ، الخط الكوفي ، الد . تدار ، علم ، اسمه منشئ المسجد وتاريخ الانشاء

واستولى الجنود - فيما استولوا عليه من نفائس القصر وتحفه في أثناء الشدة العظمى في عصر المستنصر - استولوا على أربعمئة قفص مملوءة بالأواني الفضية الثمينة المكففة بالذهب ، وقد سبكت كلها ووزعت على الثوار ..

واستولوا كذلك على أربعة آلاف قنينة مذهبة للرجس ، وعلى ألفى قنينة للبنفسج . ووجد من السكاكين الثمينة ما بيع بأبخس الأثمان . وبلغت قيمته على الرغم من ذلك ستة وثلاثين ألف دينار ، أى خمسة عشر ألف جنيه

النفائس :

ومن أجمل النفائس التى كانت تزين القصر الكبير تحف على شكل حيوانات وطيور ، منها طاووس من ذهب مرصع بالجواهر النفيسة ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المموه بالمينا على ألوان ريش الطاووس . ومنها ديك من الذهب له عرف كبير من الياقوت الأحمر المرصع بالدر والجواهر . ومنها غزال مرصع أيضا بالجواهر النفيسة ، ومائدة كبيرة واسعة من الیصب أو حجر الدم الذى يشبه العقيق ، وأخرى من العقيق ، ونخلة من الذهب مكللة ببديع الدر والجواهر، يمثل أجزائها ، وما تحمله من بلح

وقد بلغ من غرام الفاطميين بجمع التحف الفنية أن الأميرات كن ينافسن الأمراء في هذا الميدان . وأن بعضهن تركن كنوزا ثمينة : فرشيده ابنة المعز توفيت سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) وتركت تحفا تقدر قيمتها بنحو مليون وسبعمئة ألف دينار : منها ثلاثون ثوبا من الخز الثمين (أى من قماش الصوف والحرير) ، كما وجد في خزانها بعض العمامات المرصعة بالجواهر ، مما يذكر بعمامات الأمراء الهنود . ويقال أيضا انها كانت تمتلك الخيمة التى توفى فيها هارون الرشيد بمدينة طوس ، وقد كانت من الخز الأسود . وقد ضمت كل كنوزها الى خزائن القصر بعد وفاتها في عهد المستنصر . ومن التحف التى تركتها الأميرة عبدة بنت المعز

التي توفيت سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) نحو أربعمائة سيف محلى بالذهب ،
ونحو أردب من الزمرد ! ! وغير ذلك من الجواهر والأقمشة النفيسة
والأباريق والطسوت من البلور الصافي

المتحف المصنوعة من البلور :

وقد كان بخزائن القصر شيء كثير من البلور والتحف الفنية الزجاجية
المحكمة الصنع ، والمموهة بالذهب ، وغير المموهة . وقد قال أحد
المستخدمين في بيت المال أن صندوقا من الصناديق التي نهبت من القصر
ذات يوم كان مملوءا بأباريق من البلور النفيس . بعضها منقوش بزخارف
ورسوم جميلة ، وبعضها غير منقوش . والظاهر أنها كانت لشراب الفقاع
« وهو نوع من البيرة كان منتشرا في القاهرة في العصور الوسطى » (١)

الخزف اللامع :

وقد سلم لنا القليل من هذه التحف ، معروض الآن بالمتحف الاسلامى
بالقاهرة ، بين آنية من الخزف اللامع ، المعروف بالخزف ذى البريق
المعدنى ، من أصص وأطباق وصحون وبرانى ، تزينها الزخارف النباتية ،
ورسوم الطير والحيوان ، مرسومة بأيدي أشهر فناني ذلك العصر ، مثل
سعد ومسلم

واستمرت صناعة الخزف في مصر ابتداء الرحالة الفارسي ، ناصر خسرو
بصفة خاصة ، فذكر أن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة ،
وأن الخزف المصرى كان رقيقا وشفافا ، حتى لقد كان ميسورا أن ترى من
باطن الاناء الخزفى اليد الموضوعه خلفه ، وكانت تصنع بمصر الفناجين
والقدور والبرانى والصحون والمواعين الأخرى ، وتزين بألوان تشبه
لون القماش المسمى بوقلمون ، وهى ألوان تختلف باختلاف أوضاع
الآنية وساعات النهار ، وذكر أيضا عن استخدام التجار والبقالين الألوان

(١) راجع كنوز الفاطميين للمرحوم الدكتور زكى محمد حسن ص ٤٠ - ٦

الخزفية ، فيما يستخدم فيه التجار الورق في العصر الحاضر ، أنهم كانوا يضعون فيها ما يبيعونه ، يأخذونه المشترون بالمجان (١) . ولعمري أن هذا ليدل على مدنية ورقى لم تبلغهما الصناعة أو التجارة حتى في يومنا هذا

المتحف الخشبية :

كذلك معروض بهذا المتحف كثير من المتحف الخشبية المحفورة ، من أبواب وألواح ومحاريب متنقلة ، وحشوات تخلفت من القصور الفاطمية . ومن أبدع تلك المتحف ألواح خشبية ، كانت تزين القصر الفاطمي ، محفور عليها مناظر تمثل الحياة اليومية ، على أرضية من زخارف نباتية بديعة ، وتحف مصنوعة من العاج كقطع من الشطرنج والتماثيل الصغيرة

الاقمشة :

وتوجد بالمتحف السالف الذكر أيضا قطع من القماش ، كتابية وحريرية وصوفية ، عليها كتابات كوفية ، باسم الخليفة الحاكم ، وعليها رسوم نباتية وحيوانية ، وكلها مما لا يغنى فيه الوصف عن المشاهدة ، فهي قطع فنية رائعة ، تدل على مبلغ ما وصل اليه الذوق الفني الرفيع عند الفاطميين ، من التقدم والسمو

التصوير :

وكان للفاطميين في ميدان التصوير باع طويل . فقد استباحوا لأنفسهم ما أحجم عنه أهل السنة ، من مزاولة التصوير . وقد أحجم عنه أهل السنة خوفا مما جاءت به بعض الأحاديث النبوية من معاقبة المصورين يوم القيامة . ولكن الفاطميين ، الذين كانوا يعارضون أهل السنة في كثير من الأمور ، لم يأبهوا لما أنذرت به تلك الأحاديث ، وزاولوا التصوير على مدى كبير ، فصوروا الانسان والحيوان والنبات على الخزف والأخشاب وعلى الجص والمنسوجات

(١) سفرنامه ص ٦٠ - ٦١

وخلا ما هو موجود على قطع الخزف اللامع والأخشاب والمنسوجات المحفوظة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ، لم تصل اليها لوحات من التصوير الفاطمى ، ما عدا بعض صور مرسومة على الجص وجدت على جدران حمام فاطمى ، بجهة أبى السعود جنوبى القاهرة ، نقلت الى المتحف الاسلامى ، أهمها صورة انسان تحيط برأسه هالة ، وهى ملونة بالأحمر والأسود ، وعليه عمامة جميلة ، وفى يده اليمنى كأس يحمله على النحو الذى نراه كثيرا على نقوش الخزف والأواني الفارسية الساسانية ، من فضة ونحاس

وقد حدثنا المقرئى عن المباركة بين المصوّرين ابن عزيز وقصير وعن المنافسة التى كان يذكىها بينهما اليازورى ، الوزير الفاطمى المشهور . وحدث أن جمعهما اليازورى يوما فى مجلسه وقال ابن عزيز : « أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط » . فقال قصير : « لكن أنا أصورها فإذا نظرها الناظر ظن أنها داخلية فى الحائط » . فقال الحاضرون هذا عجب . وأمر اليازورى المصوّرين أن يصنعا ما وعدا به . فرسما الصورتين فى حنيتين متقابلتين . وكان رسم قصير راقصة ، بثياب بيض ، فوق أرضية الحنية التى دهنها باللون الأسود ، فظهرت الراقصة كأنها داخلية فى الحنية . بينما كان رسم ابن عزيز راقصة بثياب أحمر ، فوق أرضية الحنية التى دهنها باللون الأصفر ، فظهرت الراقصة كأنها بارزة من الحنية . فاستحسن اليازورى ذلك ، وخلع عليهما كثيرا من الذهب (١)

الحالة العلمية :

كان فى مقدمة ما عنى به الخلفاء الفاطميون جمع الكتب ، مما يستدل معه على ميلهم الى احياء العلوم . وشغفوا بصفة خاصة بجمع النادر من الكتب ، فى كل علم وفن . وكثيرا ما كانوا يحرصون على اقتناء نسخ

من مختلف الكتب بخط مؤلفيها ، ويدفعون في سبيل ذلك أغلى الأثمان ،
مبالغة في التحقيق والتدقيق ، هذا فضلا عن تنسيق تلك الكتب وتبويبها ،
والمحافظة عليها ، وفق نظام دقيق ، تيسيرا للرجوع اليها ، والاعتراف
من مناهلها
خزانة الكتب :

وذكرنا في معرض الكلام عن خزائن القصر أنه كان من بينها خزانة
المكتب ، وقد ذكر المقرئ في خطه أنها كانت تشتمل على ألف ألف وستمائة
ألف كتاب - أي مليون وستمائة ألف ، وكانت في أحد مجالس المارستان
العتيق - أي أنها كانت في الموضع الذي أنشئ فيه مارستان قلاوون بعد
ذلك ، وكانت تتألف من أربعين قسما ، ويحتوي كل قسم على عدة
رفوف ، في دور ذلك المجلس العظيم . والرفوف مقطعة بحواجز ، وعلى
كل حاجز باب مقفل بفصلات وقفل ، ومن بين ما تحتوي عليه كتب في
الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ ،
وسير الملوك ، والنجامة والروحانيات ، والكيمياء ، والمصاحف الكريمة
بخط ابن مقلة ونظائره ، كابن البواب وغيره ، وثمانية عشر ألف كتاب
من العلوم القديمة ، وألفان وأربعمائة ختمة قرآنية ، في ربعات بخطوط
منسوبة ، زائدة الحسن ، محلاة بذهب وفضة وغيرهما . وأن جميع ذلك
ذهب فيما أخذه الأتراك في واجباتهم - أي أجورهم ومرتباتهم - بعض
قيمه ، أيام الشدة الكبرى في عهد الخليفة المستنصر (١)

ومن طريف ما ذكره المقرئ في هذا الشأن : أن رجلا حمل الى العزيز
بالله نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار ، فأمر العزيز أمناء
المكتبة ، فأخرجوا من الخزائن ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ
الطبرى ، منها نسخة بخط يده ، ولعله فعل ذلك لكيلا يركب الرجل
متن الشطط في تقدير ثمن الكتاب

(١) المقرئ : الخطط ح ٢ ص ٢٥٤

ونقل المقرئ عن صاحب كتاب الذخائر : « قال وكنت بمصر في العشر الأول من محرم سنة احدى وستين وأربعمائة ، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتب ، محمولة الى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى ، فسألت عنها ، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق فى السدين ، بايجاب ، وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبلين » (١)

شغف الخلفاء بالعلم :

ولم يكن اقتناء الكتب والمحافظة عليها حبا فى الزينة ، وجريا وراء المظاهر البراقة ، وانما كان الخلفاء الفاطميون يدمنون القراءة والمطالعة ، بل لقد عرف عن بعضهم أنهم كانوا من أعلم أهل زمانهم ، كالمعز لدين الله ، الذى كان عالما وفقها ، وعلماء من أعلام الدين والأدب ، بليغ الأسلوب ، ملما بكثير من اللغات . وما رأتى فى مجلس أو عابرا طريقا الا ويده كتاب (٢) . وكان هو وكثير من أسرته من بعده ، من بينهم الحاكم بأمر الله يشتغلون بعلوم النجوم ، ويميلون الى علوم الأوائل ، ويقربون اليهم أهلها ، ويفرضون العلم على أولادهم ومماليكهم

وكثيرا ما كان الخليفة يزور خزانة الكتب ، فيجىء راكبا ، ثم يترجل ويتخذ مجلسه فوق دكة منصوبة ، ويمثل بين يديه أمين المكتبة ، ويأتيه بمصاحف كثيرة ، مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين ، وغير ذلك مما يقترحه من الكتب . فان عئن له أخذ شيء منها أخذه ثم أعاده (٣)

عناية الوزراء بالعلم :

ولم يكن الخلفاء وحدهم يشتغلون باقتناء الكتب ، وينقبون عنها ، ويدمنون القراءة ، ويطلقون البحث فيها ، بل ان وزراءهم كانوا يقتفون أثرهم ، وينهجون نهجهم . فقد روى عن يعقوب بن كلس ، وزير العزيز ،

(١ ، ٢ ، ٣) المقرئ : الخطط ح ٢ ص ٢٥٤

انه كان يرتب في داره الكتاب والأطباء ، وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وألّف كتباً عدة في الفقه والقراءات ، ونصب له مجلساً في داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل ، يتناظرون بين يديه . وكان في داره كذلك عدة كتب ، ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدباء وغيرها من العلوم ، فاذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت (١)

الجوامع كمرآة لنشر العلم :

ولم تقف جهود الخلفاء الفاطميين في احياء العلوم ونشر المعارف عند حد اقتناء الكتب والمحافظة عليها ، بل انهم نشروا العلم وشجعوا الناس على الاعتراف منه ، بكل الوسائل والطرق . فلقد ظل العلم يلقي في جامع عمرو في حلقاته العلمية والأدبية ، التي كانت تعقد بانتظام ، ويشهدها عدد كبير من الأساتذة والطلاب والأدباء والشعراء ، كما كان يحدث في عهد الدولتين الطولونية والأخشيديّة ، وأوقف عليه الخلفاء الفاطميون وعلى غيره من المساجد والأوقاف والهدايا ، وقد كان يصيب هذا الجامع لهذا السبب كثير من الترميمات والاصلاحات بين آن وآخر . كذلك كان الخلفاء الفاطميون يشملون الطلاب بالرعاية والعطف ، وترتب لهم نفقات مأكلهم ومشربهم ، فضلاً عما يقدم لهم من الأطعمة والحلوى في جميع المواسم والأعياد

ومن أشهر الفقهاء الذين جلسوا للتدريس في جامع عمرو في عهد الفاطميين على بن نصر بن سليمان الزنبقي اللغوي ، وقرىء عليه كثير من الكتب الأدبية واللغوية والنحوية ، وأبو أسامة جنادة بن محمد النحوي ، وأبو الحسن طاهر بن بابشاذ ، وكان كلاهما عالماً في اللغة والنحو

(١) الفاطميون في مصر للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٢٣٦

غير انه لا يغيب عن البال أن الخلفاء الفاطميين كانوا يتخذون من الجوامع مراكز لنشر المذهب الشيعي ، واشاعة عقائدهم بين الناس ، فقد جلس بجامع عمرو كثير من الفقهاء ، درسوا فيه الرسالة الوزيرية ، التي ألّفها الوزير يعقوب بن كلس في الفقه الشيعي ، في عهد العزيز . كما قام فيه بتدريس العلوم الشيعية في زمن الحاكم بأمر الله القاضي الحسين بن علي بن النعمان وعبد العزيز بن محمد بن النعمان

كذلك أدى جامع ابن طولون دوره كمعهد علمي . غير انه لم يتح له من النشاط والشهرة مثلما أتيح لجامعي عمرو والأزهر ، اذ لم يرو لنا التاريخ أسماء لامعة قامت بالتدريس فيه ، مثلما روى من أسماء العلماء والأدباء والفقهاء الذين حضروا في الجامعين المذكورين

الجامع الأزهر :

أما الجامع الأزهر فقد عقدت له الزعامة الثقافية والعلمية والدينية على غيره من الجوامع ومعاهد العلم ، وذلك لما كان يختصه به الخلفاء الفاطميون من رعاية وعناية ، وما يخلعوناه عليه من زخرف وزينة ، وما يضاء به في المواسم والأعياد ، من أنوار ساطعة . فهو مسجدهم المفضل ، الذي يخطب فيه الخليفة ، وتعتقد فيه مجالس الدروس ، وتنتشر منه تعاليم المذهب الفاطمي ، وينعم فيه الأساتذة والطلاب بالأرزاق الوفيرة ، والهدايا الحسنة . ولقد اختصه الحاكم بوقفية ملكية ، هي أول وقفية صدرت للاتفاق على هذا المسجد ، وقف فيها ريع كثير من ممتلكاته ، من دور وحوانيت ومخازن ، للاتفاق على أثاثه وخدمته وأئمنته ، وعلى إنارته واصلاحه . لذلك لم يكن غريبا أن يصبح أكبر جامعة اسلامية في الشرق ، يفد عليه الطلاب من كل حذب وصوب ، يتلقون فيه مختلف العلوم الدينية والفلسفية والمنطق ، وبعض الرياضيات والطب ، على يد علماء ذلك العصر ، مثل

أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم ، الذى رحل الى مصر فى زمن الحاكم . وظل بها الى أن توفى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ - ١٠٣٩ م) وهو أشهر علماء المسلمين فى الطبيعة والبصريات ، ويعرف عند الأوربيين باسم «الهازن» . ومن أشهر كتبه كتابه فى البصريات ، المسمى «كتاب المناظر» ، الذى يعتبر أساس علم الضوء حتى وقتنا هذا . وقد ضاع أصله العربى ، ولكن بقيت ترجمته اللاتينية . والحو فى امام العربية والنحو ، وابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وغيرهم من علماء الفقه والدين واللغة العربية ونحوها وصرفها وآدابها

ولقد قصد الفاطميون من انشائهم الجامع الأزهر أن يكون جامعة شيعية ، ولم يدروا أنهم يضعون أساس أكبر جامعة اسلامية سنية ، بل وأعظم قلعة حصينة يذاع منها الاسلام خالصا صحيحا فى مشارق الأرض ومغاربها . فما دالت دولة الفواطم ، وعفّت آثارها ، الا وحمل الأزهر الأمانة ، وظل طوال القرون التالية حتى اليوم حصن الاسلام الحصين ، وركنه الركين . وانعقدت لعلمائه فى تاريخ مصر الحديث الزعامة والرياسة ، فى توجيه الرأى العام

وقد وصف المقرئى حركة العلم فى الأزهر فقال : « ولم يزل فى هذا الجامع منذ بنى عدة من الفقراء ، يلازمون الإقامة فيه . وبلغت عدتهم فى هذه الأيام - أيام المقرئى - ٧٥٠ رجلا ، ما بين عجم وزبالقة ، ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتعليمه ، والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ، وبجالس الوعظ والارشاد وحلق الذكر . فيجد الانسان اذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله ، والإرتياح ، وترويح النفس ، ما لا يجده فى غيره . وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس ، اعانة للمجاورين فيه على

عبادة الله تعالى . وكل قليل ، تحمل اليهم أنواع الأطعمة ، والخبز ،
والحلويات لاسيما في المواسم » (١)

دار الحكمة او العلم :

لم تقف جهود الفاطميين في نشر العلم على المساجد ، بل تعدت ذلك
الى انشاء المعاهد التي افردت بنشره ، فشاء الحاكم في سنة ٤٠٠ هـ
(١٠٠٩-١٠١٠م) دارالعلم أودارالحكمة، وكانت تلاصق القصر الغربي، وأمدّها
بالأثاث ، ورتب لها الخدم والفراشين ، وحمل اليها من خزانة القصر عددا
كبيرا من الكتب في مختلف العلوم والفنون ، وأوقف عليها الأوقاف
الكثيرة للانفاق على الطلاب والأساتذة والأدوات . وذكر المقرئى أنه
« حصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب
التي أمر بحملها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ، ما لم ير
مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم،
ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم
من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعليم،
وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر » (٢)

وظلت دار العلم تؤدي رسالتها طوال العهد الفاطمي ، ما عدا فترات
قصيرة ، أغلقت فيها ، ثم يعاد فتحها ، الى أن دالت الدولة ، وقامت على
اتقاضها دولة بنى أيوب ، فأحالتها صلاح الدين الأيوبي ، وكان قد أوقف
جهوده على القضاء على المذهب الشيعي ، الى مدرسة لتعليم الدين ،
وفق المذهب الشافعي

مجالس المناظرة في القصر :

وفي القصر كانت تعقد مجالس المناظرة تحت اشراف الخليفة ووزرائه ،
وبحضور العلماء والأدباء ، وكبار رجال دولته . فيتناظر العلماء في مختلف

(١) المقرئى : الخطط ح ٤ ص ٥٤

(٢) المقرئى : الخطط ح ٢ ص ٣٣٤

المسائل. وفي نهاية المناظرة ينهض الشعراء ، يشدون القصائد ، ويتبارون في مدح الخليفة ، والاشادة بمجد آباءه وأجداده . ولا غرو اذا وفد على مصر كثير من الشعراء ، من مختلف الأقطار ، يسعون الى مجلس الخليفة ، يشدون عطاءه ، ويبتغون كرمه ، من هؤلاء أبو حامد الانطاكي ، ومحمد ابن القاسم بن عاصم ، وأبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادي المعروف بصريع الدلاء ، وأبو الحسن على بن نوبخت ، وعبد الوهاب بن نصر المالكي . وقد مدح ابن هانيء الأندلسي المعز لدين الله الفاطمي في قصائد رثائه ، غالى فيها في مدح المعز حتى انحدر الى درجة الكفر ، وكان يزعم الرحيل الى مصر ، في اثر المعز ، بعد رحيله من بلاد المغرب ، ولكنه توفي في الطريق ، فحزن عليه المعز كثيرا

الحالة الاجتماعية

المجتمع المصري :

كان المجتمع المصري في عهد الفاطميين ينقسم بصفة عامة الى سنيين ، وهم جمهرة المصريين قبل وفود الفاطميين الى مصر ، وشيعيين ، وهم الذين وفدوا اليها من بلاد المغرب ، وقد تحول كثير من السنيين ، بل ومن النصارى واليهود ، الى المذهب الشيعي ، طمعا في الهبات والعطايا ، التي كان الفاطميون يغرون بها الناس للانضمام الى مذهبهم ، وتقلد كثير من اليهود بعد اسلامهم وتشيعهم أرقى المناصب في الدولة ومن بينها منصب الوزارة

وبالاضافة الى السنيين ، وهم أهل مصر ، والشيعيين ، وهم المغاربة ، أو من اعتنق هذا المذهب من المصريين ، كانت توجد طبقة الأتراك الذين تكاثروا منذ عهد أحمد بن طولون ، التركي الجنس ، والسودانيون الذين استكثر منهم كافور الأخشيدي ، وقد ظهر أمرهم في عهد الحاكم ، حيث استعان بهم على الجنود الأتراك ، فأحرقوا القاهرة ، عقابا للمصريين الذين

كانوا يحنقون عليه ، لسوء سياسته . وقد استمر العراق بين الأتراك
والسودانيين طوال العصر الفاطمي (١)

الإدارة :

وقد كانت الإدارة في العهد الفاطمي تتبع النظام العباسي ، أو بعبارة
أخرى النظام الفارسي القديم . وكان الجيش مكونا من ثلاث طبقات :

- ١ - الأمراء ومن بينهم كبار الضباط وحمله السيوف من حرس الخليفة
 - ٢ - ضباط الحرس ، وهؤلاء يشملون الأساتذة والخصيان
 - ٣ - الفرق المختلفة التي كانت تحمل أسماء منسوبة الى أحد الخلفاء
أو الوزراء أو إحدى الجنسيات مثل الحافضية والجوشية والسودانية
- كبد الموظفين :

وكان الوزراء من طبقات متعددة ، أرقاهم رجال السيف الذين يشرفون
على الجيش والحرب ، ثم سادة الباب أو كبار الحجاب ، وكانت وظيفتهم
تقديم السفراء الأجانب. أما رجال القلم ، فكان من بينهم القاضي والمحتسب
الذي يشرف على الموازين والمكاييل والمقاييس والآداب العامة ، وخازن
الدولة الذي يشرف على بيت المال . وكانت أقل مرتبة في طبقة رجال القلم
الموظفون المدنيون، ومن بينهم الكتّاب والسكرتارية في مختلف الدواوين (٢)

الاعياد والمواسم :

وقد كان للخلفاء الفاطميين عناية خاصة بالأعياد والمواسم ، وقد ذكرنا
فيما سبق أسماء المواسم التي ابتدعوها ، والتي ما زال كثير منها باقيا
حتى اليوم ، نحتفي به ونحييه . وفي تلك الأعياد ، خصوصا عيدي الفطر
والنحر ، كانت تمد الأسمطة « الموائد » ، وتعد ألوان الطعام الوفيرة ،

(١) تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن
(٢) تاريخ العرب تأليف فيليب حتى ، ترجمة المرحوم الاستاذ محمد مبروك نافع ، المجلد
الثاني ص ٨١٣

ويدعى الناس اليها من جميع الطبقات ، لا فرق ولا تمييز ، ليأكلوا هنيئاً ،
وبشربوا مريئاً ، مما لذ وطاب ، وهم انما يلتمسون من وراء ذلك رضا
الشعب ومحبة ، واجتذاب الناس الى المذهب الشيعى ، الذى كانوا
يحاولون بشتى الطرق تثبيت دعائمه ، ونشر لوائه

« ففى يوم عيد الفطر ، كان يقام السماط مرتين ، وفى عيد النحر مرة
واحدة ، فى قاعة الذهب ، احدى قاعات القصر الفاطمى . ويعبى السماط
فى الليل ، وطوله ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع ، وعليه من أنواع
المأكّل أشياء كثيرة . فيحضر اليه الوزير، أول صلاة الفجر، والخليفة جالس
فى الشباك، ومُكَنَّتْ الناس منه ، فاحتلموا ونهبوا ما لا يأكلونه ، ويبيعونه
ويدخرونه ، وهذا قبل صلاة العيد . فاذا فرغ من صلاة العيد ، مُدَّ
السماط المقدم ذكره فيؤكل ، ثم يمد سماط ثان من فضة ، يقال له
المدورة ، عليها أوانى الفضة والذهب والصينى ، فيها من الأطعمة الخاص
ما يستحى من ذكره ، والسماط بطول القاعة ، وهو خشب مدهون شبه
الدكك اللاطية ، عرضه عشر أذرع . ويحط فى وسط السماط واحد
وعشرون طبقاً ، فى كل طبق واحد وعشرون خروفاً ! ! ومن الدجاج
ثلثمائة وخمسون طائراً ، ومن الفراريج — الدجاج — مثلها ، ومن فراخ
الحمام مثلها ، وتتنوع الحلوى أنواعاً ، ثم يمد بخلل تلك الأطباق — أى فيما
بينها — أصحن خزفيات فى جنبات السماط ، فى كل صحن تسع دجاجات ،
فى ألوان فائقة من الحلوى ، والطباهجة — وهو ضرب من قلى اللحم
المشرح — المفتقة بالمسك الكثير — أى المحشوة به — وعدة الصحنون
خمسائة صحن، مرتب كل ذلك أحسن ترتيب . ثم يؤتى بقصرين من حلوى
— أشبه شئ بالتورطة اليوم — قد عملا بدار الفِطْرة ، زنة كل واحد
سبعة عشر قنطاراً ! ! فيتمضى بواحد من طريق قصر الشوق الى باب
الذهب ، ويشق بالآخر من الجانب بين القصرين ، فينصبان أول السماط

وآخره ، ثم يخرج الخليفة راكبا ، فينزل على السرير الذى عليه المدورة
الفضية ، وعلى رأسه أربعة من كبار الأساتذة المحنكين ، وأربعة من خواص
الفراشين ، ثم يستدعى الوزير فيجلس عن يمينه ، والأمراء ومن دونهم
فيجلسون على السباط ، فيتداول الناس السباط ، ولا يثرد أحد عنه حتى
يذهب عن آخره ، فلا يقوم الخليفة الا قريب الظهر ، ثم يخرج الوزير
ويذهب الى داره ، ويعمل سباطا يقارب سباط الخليفة . وهكذا يقع في
عيد النحر ، في أول يوم منه « (١)

وكان يمد سباط عظيم في سرادق رحب على شاطئ النيل ، على مقربة
من المنطرة المعروفة بمنطرة السكرية ، كما كان يصنع في موسم مولد النبي
صلى الله عليه وسلم عشرون قنطارا من الحلوى ، توزع على ثلثمائة خوان
صينية - وتوزع على الناس في الأزهر . وما زالت الحلوى الى اليوم
تصنع وتباع في مولد النبي وأولياء الله الصالحين ، في طول البلاد وعرضها ،
وربما لا يعرف كثير من الناس أن هذا التقليد انحدر اليها عن الفاطميين ،
ضمن ما انحدر اليها من ابتكاراتهم وبدعهم
ركوب الخلفاء الفاطميين :

وكان الخلفاء الفاطميون يخرجون في مواكب غاية في الفخامة والأبهة ،
للاحتفال بالأعياد والمواسم ، أو للصلاة في المساجد ، أو لتوديع فرقة
من الجيش ، أو لاحياء مناسبات أخرى . وكان ركوب الخلفاء لا ينقطع
من أول العام حتى شهر رمضان
الاحتفال بأول العام الهجرى :

وأفخم مواكبهم يوم الاحتفال بأول العام الهجرى ، حيث توضع
الترتيبات والتنظيمات ، وتفتح خزائن الفرش والكسوات والأسلحة

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩٧ - ٩٨

والأعلام والبنود والسروج والتجميل ، وتمد كل فئة بحاجتها من العدد والأدوات ، مما تستلزمه تلك المناسبات

« ويخرج الخليفة في جمع زاخر من أفراد أسرته وغلمانه وبطانته ووزرائه وموظفي دولته وجنوده ، من مختلف الأسلحة والأجناس ، راجلين وراكبين ، يحملون السيوف والرماح ، وينشرون الأعلام والبنود ، ويلبسون الملابس الفاخرة ، ويركبون الجياد المطهمة ، ويسيرون وفق نظام دقيق ، وترتيب موضوع . ويصطف الأمراء والوزراء على باب النصر حتى يهل عليهم الخليفة بطلعته ، وحوله الأستاذون المحنكون (١) ، ودابته تمشى على بسط مفروشة ، خيفة أن تزلق على الرخام . فعندما يقترب من الباب ، يقترب رجل بيوق من ذهب لطيف معوج الرأس ، بصوت عجيب ، يخالف أصوات الأبواق ، فتضرب أبواق الموكب ، وتشر المظلة ، ويخرج الخليفة من الباب ، فيقف مقدار ما يركب الأساتذة المحنكون ، وأرباب الرتب الذين كانوا بالقاعة. ويكون لباسه البياض ، يزين رأسه تاج مرصع بالجوهرة اليتيمة ، وهى جوهرة عظيمة ، لا تعرف لها قيمة ، حولها ما دونها من الجواهر ، وهى موضوعة فى هلال من ياقوت أحمر ، ليس له مثال فى الدنيا ، زنته أحد عشر مثقالا ، وقيل أكثر ، يقال له الحاضر ، فتتظم فى خرقة من حرير ، أحسن ما يمكن من الوضع ، ويخاط على التاج بخياطة خفيفة ، فيكون ذلك بأعلى جبهة الخليفة ، وبدائرها قصب الزمرد الذبابى (٢) العظيم القدر »

« ثم يسرون والمظلة على يسار الخليفة ، وصاحبها يبالغ ألا يزول عنه ظلها ، وصبيان الركاب ، منهم جماعة كبيرة من الشكيماتين ، وجماعة أخرى فى عنق الدابة ، وجماعة أخرى فى ركابه ، فالأيمن مقدم المقدمين ، وهو

(١) خواص خدم الخليفة ، وهم الذين يدورون عماثمهم على احناكهم
(٢) أى ان لونه كلون الذباب المائل الى الخضرة

